القدر

بقلم

معالي الدكتور طه حسين باشا

جميع الحقوق محفوظة

شركة التوزيع المصرية

٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس

تقدمة	٥
رسالة اهداء قصة زوبج من سعدى الى السلطانة شعرا	١٠
الاعور	١٢
الانف	١٨
الكلب والجواد	٢١
الحسود	٢٥
الكريم	٣٣
الوزير	٣٦
الاستقبالات والخصومات	٤١
الغيرة	٤٧
المرأة المضروبة	٥٤
الزق	٦٠
التحريق	٦٤
العشاء	٦٧
الموعد	٧٢
الرقص	٧٧
العيون الزرق	٨١
قاطع الطريق	٨٧
الصائد	٩١
الباسليك	٩٦
المبارزة	١٠٧
الناسك	١١٤
الانقاذ	١٢٢

obeikandl.com

obeikandl.com

تقدمة

هذه قصة من قصص فولتير التى عنى فيها ببعض المشكلات الفلسفية العليا التى شغلت الناس دائما ، وشغلت الفرنسيين بنوع خاص اثناء القرن الثامن عشر ، وهى مسألة القضاء والقدر ، ومكان الانسان وارادته منهما .

وما اريد أن أتعمق قضية القضاء والقدر فى نفسها ، ولا أن اتعمقها بالقياس الى الفلاسفة والمثقفين الذين عاصروا فولتير ، ولا أن أتعمقها بالقياس الى فولتير نفسه . فنحن فى فصل الصيف ، وهو فصل لا يحتمل مثل هذا البحث الذى يكلف الكاتب والقارىء من العناء مايحتاج الى حياة رائقة شائقة يستحب فيها النشاط ولا يشق فيها الجهد الذهنى .

وانا بعد ذلك لم افكر فى تقديم هذه القصة الى القراء فى هذا الفصل الشديد الا لاريح الزملاء الذين يشاركون فى تحرير هذه المجلة ، والقراء الذين يتفضلون بقراءتها ، من تكليف انفسهم عناء الجد فى الكتابة والجد فى القراءة اثناء فصل القيظ . والراحة حق للكتاب كما هى حق للقراء . ولكن الراحة ألوان واشكال ، فهناك الراحة التى يستمتع بها الانسان حين لا يعمل شيئا ، وهى راحة بغيضة لانها عقيمة لاتنفع صاحبها ولا تنفع الناس . وهناك الراحة التى يستمتع بها الانسان حين يتجه من العمل الى مايمتعه ويمتع

الناس دون ان يشق على نفسه وعليهم ، وهذه هى الراحة الخصبة التى يدل لفظها على معناها دلالة صادقة ، والتى تعصم الانسان من الفراغ الفارغ الجدب الذى يميت القلوب ، وهى الراحة التى تلائم المثقفين من الكتاب والقراء جميعا . فالرجل المثقف لا يبغض شيئا كما يبغض الفراغ الجدب العقيم ، والراحة بالقياس اليه هى الانتقال من عمل مجهد مضن الى عمل يجمع بين التسلية والمتاع . والى هذه الراحة قصدت حين فكرت فى ان اعفى محررى هذه المجلة من انشاء بحوثهم المضنية ، وقراءها من العكوف على تفهم هذه البحوث ، وفى ان اعفى القراء فى الوقت نفسه من الفراغ الذى كانوا قد يضطرون اليه ساعات من نهار او اياما من شهر لو لم تقدم اليهم المجلة شيئا ، وفى ان ترجم لهم آية ادبية رائعة يجدون فى قراءتها ما يرضى حاجتهم الى التفكير ، وحاجتهم الى الراحة ، وحاجتهم الى المتعة الادبية الرفيعة فى وقت واحد . وانا احد الالوف او الملايين من الناس - ان حسن ظننا بالناس - الذين يعجبون بأدب فولتير ، وينتهى بهم الاعجاب الى الفتنة فى كثير من الاحيان ، لان هذا الادب لم يكتب له الخلود فحسب ، وانما كتب له الخلود والشباب جميعا . او قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الانسانية على اختلاف العصور والبيئات والاجيال . وان اقيم الدليل على شىء من ذلك ، فقد فرغ التاريخ الادبى من اقامة الدليل عليه ، وهذه القصة نفسها استدل عليه فى وضوح وجلاء واقناع . وما اظن القراء يكلفوننى ان اوثرهم بشىء لا اوثر به نفسى او ان احتمل فى سبيلهم من الجد والمشقة ما لا احب ان احتمله فى سبيل نفسى .

وقد قرأت هذه القصة مرات توشك ان تبلغ عشرا ، واكبر الظن انى سأقرؤها واقرؤها ، وقد وجدت فيها وسأجد فيها دائما متعة للعقل والقلب والذوق . فاذا قدمتها الى القراء فقد آثرتهم بما اوثر به نفسى ، ولم يظلمك من سوى بينك وبين نفسه .

وقد كتب فولتير هذه القصة حين كاد القرن الثامن عشر ينتصف سنة ١٧٤٨ وتكلف فنونا من الجهد والحيلة ليطبعها خارج فرنسا وليشرها فى فرنسا بعد ذلك ، وليستأنف طبعها فى فرنسا . ولولا ضيق الوقت ، وانى فى باريس مشغول بما يشغل به الانسان حين يلم بباريس ليقيم فيها وقتا قصيرا وليرحل عنها بعد ذلك — لولا هذا لقصصت على القراء من جهد فولتير وحيلته فى نشر هذه القصة ، ثم من جحوده اياها وتنصله منها مخافة ان تجر عليه شرا ، ما فيه كثير من الفكاهة والتسلية . ولكنى ارجو ان اعود الى هذا كله فى وقت قريب .

وقد مر بفولتير طور من أطوار حياته الادبية قرأ فيه ترجمة « الف ليلة وليلة » ، فشاقته وراقته ووجهته الى دراسة أمور الشرق ، فغرق فى هذه الدراسة الى اذنيه ، واخرج للناس قصصا شرقية بارعة كثيرة ، منها هذه القصة وارجو ان يتاح لى أن أترجم لقراء العربيه طائفه من قصصه الشرقية الاخرى

وبطل هذه القصة فتى من أهل بابل ، يسميه فولتير زديج ، ونسميه نحن صادقا ، وقد كدت أضع صادقا مكان زديج فى القصة كلها ، ولكنى اثرت ان احتفظ لفولتير باسم بطله كما اراد هو ان يكون . وهذا الفتى البابلى المثقف الممتاز قد اختلفت عليه الاحداث وتعرض لكثير من المحن فى وطنه اولا وفى الاوطان التى

تغرب فيها بعد ذلك ، فى مصر وفى بلاد العرب وفى جزيرة سرنديب وفى سوريا ، وكانت هذه الاحداث والمحن كلها مخالفة لمنطق الاشياء وطبيعة الحياة كما يراها الناس ، فقد كان يكافأ بالشر على الخير دائما ، وكان يستقبل ذلك بالحيرة والاذعان وبالصبر والاحتمال ، حتى كوفىء آخر الامر بما يلائم ذكاءه ووفاءه وثقافته وبراعته وصبره واحتماله فأصبح ملكا على الدولة البابلية العظمى .

ففى القصه اذن عرض لمشكلة القضاء والقدر كما يتصورها الشرقيون ، او كما خيل لفولتير ان الشرقيين يتصورونها . وفيها حل لهذه المشكلة على نحو ما تصوره الفلاسفه منذ أقدم العصور ، وهو هذا الحل الذى لا يحل شيئا ، والذى يلخص فى أن الانسان أقصر عقلا وأكل ذهنا من أن يفهم حكمة الخالق الذى أبدع العالم ووضع له ما يدبره من القوانين . فما عليه الا أن يكد ويجد ويعمل الخير ما وسعه أن يعمل الخير ، ويجتنب الشر ما أتيح له ان يجتنب الشر ، ولا عليه بعد ذلك ان تسره الايام أو تسوءه ، وان تسخطه الاحداث أو ترضيه .

ولكن فى القصة أشياء اخرى غير هذا العرض الفلسفى لمشكلة القضاء والقدر ، هو الذى أتاح لها الخلود ، وهو نقد الحياة الانسانية من ناحيتها السياسيه والاجتماعية والخلقية ، والنفوذ بهذا النقد الى صميم الطبيعة الانسانية ، وما ينشأ عن احتمالها للحياة وتصرفها فيها من الخطوب . وواضح جدا ان فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة الى نقد الحياة الاوربيه عامة والحياة الفرنسية خاصه ، واتخذ مدينة بابل رمزا لمدينة باريس ، وقصر

بابل رمزا لقصر باريس ومن أجل هذا اشفق من نسبة هذه القصة اليه . ومن اجل هذا فتن الفرنسيون بهذه القصة فى عصر فولتير ، ومازالوا يفتنون بها الى الآن ، ومن اجل هذا اعتقد أن قراء العربية سيجدون فى قراءة هذه القصة مايلائم حاجتهم الى نقد الحياة الانسانية من ناحية السياسة والاقتصاد والاجتماع. فليقرءوا ، وليتفكروا ، وليتذكروا وليستريحوا الى القراءة والتفكر والتذكر ، ثم لينتفعوا بعد ذلك بما يقرءون وما يتفكرون وما يتذكرون .

طه حسين

رسالة اهداء قصة زديج

الى السلطانة شعرا

من سعدى

في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٨٣٧ هجرية

اى بهجة العيون ، وعذاب القلوب ، ونور العقول ، لن اقبل تراب قدميك لانك لا تكادين تمشين ، أو لانك انما تمشين على بسط ايران او على الورد . اليك اهدى هذه الترجمة لكتاب الفه حكيم قديم اتيحت له سعادة الفراغ فسلى نفسه بانشاء قصة زديج ، وهى قصة تقول أكثر مما يظهر انها تقول . وأتوسل اليك ان تقرئيها وتقدريها . فمع انك فى ربيع الحياة ، ومع ان اللذات كلها تسعى اليك ، ومع انك حسناء ، وان ذكاءك يضيف الى جمالك جمالا ، ومع ان الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل الى أن يسفر الصبح ، وان من شأن هذا كله أن يباعد بينك وبين القصد ، فانت على رغم هذا كله راجحة العقل مترفة الذوق ، وقد سمعتك تتحدثين فاذا أنت ارجح عقلا من الدراويش ذوى اللحى الطوال والقلانس المحددة .. وانت رفيقة لا تحبين الارتياب ، وانت رقيقة دون ان تنتهى بك الرقة الى الضعف . وانت محسنة مع العلم بمواضع الاحسان . وانت تحبين أصدقاءك ولا تتعرضين لعداوة أحد . وانت لاتزينين عقلك ببهرج الغيبة ، وانت لا تقولين السوء ولا تأتينه على كثرة ما يدعوك الى ذلك . ثم ان نفسك قد ظهرت لى دائما نقية نقاء حسنك . بل ان لك حظا يسيرا من الفلسفة حملنى على ان أقدر أنك ستؤثرين اكثر من غيرك هذا الكتاب الذى الفه حكيم .

وقد كتب أول الامر فى اللغة الكلدانية التى لا تفهمينها انت ولا افهمها انا ، ثم ترجم الى العربية ليتلهى به السلطان المعروف أولوج بب . كان ذلك فى الوقت الذى اخذ العرب والفرس فيه يكتبون « ألف ليلة وليلة »و « الف نهار ونهار » . . وكان أولوج يؤثر قراءة زديج على حين كانت السلطانات يؤثرن قراءة الف وواحد ، وكان اولوج الحكيم يقول لهن : « كيف تؤثرن قصصا لا مغزى لها ولا تدل على شيء ؟ » وكن يجبنه : « لهذه العلة نفسها نحب هذه القصص »

وانا ازعم انك لن تشبهيهن ، وانك ستكونين أشبه شيء باولوج .. بل انا أرجو ان اجد لحظة قصيرة أتحدث اليك اثناءها فيما يلذ العقل حين تسأمين الاحاديث العامة التى تشبه الالف والواحد، على انها اقل منها تسلية وتلهية . . ولو قد كنت تالستريس التى عاشت ايام الاسكندر بن فيليب، أو ملكة سبأ التى عاشت ايام سليمان ، لسعى اليك هذان الملكان .

وانى اضرع الى الفضيلة السماوية أن يكون نعيمك صفوا وحسنك باقيا ، وسعادتك خالدة

سعدى

الفصل الأول

الاعتزال

كان يعيش فى بابل اثناء حكم الملك مؤبدار ، فتى يسمى زديج، وقد فطر على طبع كريم زادته التربية كرما . كان غنيا ، وكان فى ريعان الشباب ، ولكنه كان على ذلك يعرف كيف يكبح جماح شهواته ، لم يكن يتكلف. ولم يكن يحرص على ان تكون له الكلمة الاخيره دائما ، وكان يعرف كيف يقدر ضعف الناس . وكان الناس من حوله يدهشون لانهم لم يروه قط على ماكان يمتاز به من الذكاء يهزأ بهذه الجمل الغامضة المتنافرة الصاخبة ولا بهذه الغيبة الجريئة ، ولا بهذه القرارات الجاهلة ، ولا بهذه السخافات الفجة ، ولا بهذا الضجيج الباطل ، مما كان اهل بابل يسمونه حديثا . وكان قد تعلم من الكتاب الاول من آثار زرادوشت ان الاعتداد بالنفس كرة نفختها الريح ، فايسر ثقب فيها يخرج منها زوابع . وكان من اخص صفات زديج انه لم يكن يفاخر بازدراء النساء او اختلابهن . وكان كريما لايكره ان يحسن الى الجاحدين ، يتبع فى ذلك هذه الحكمة البالغة من حكم زرادوشت : « اذا اكلت فاطعم الكلاب ، وان اغراها ذلك بعضك » . كان حكيما كاحسن ما يكون الحكيم ، لانه كان حريصا على معاشرة الحكماء . عرف علم القدماء من الكلدانيين . فلم يكن يجهل اصول الطبيعة التى كانت تعرف فى ذلك الوقت ، وكان يعرف مما بعد الطبيعة ماعرف الناس فى كل عصر ، اى قليلا من الاشياء . وكان مقتنعا كل الاقتناع بان العالم يشتمل

على خمسة وستين وثلاثمائة يوم وربع يوم ؛ على رغم الفلسفة الجديدة فى عصره ، وبان الشمس هى مركز الكون . وكان يؤثر الصمت فى غير غضب ولا ازدراء اذا قال له كبار الكهنة انه سيء العقيدة ، وان من الخروج على الدولة ان يعتقد الانسان ان الشمس تدور حول نفسها ، وان العام يتالف من اثنى عشر شهرا .

وقد اعتقد زديج ان من الممكن ان يكون سعيدا ، فقد كان يملك ثروة ضخمة ، وكان له من اجل ذلك اصدقاء كثيرون ، وكان جيد الصحة ، رائق الوجه ، مستقيم العقل ، معتدل المزاج ، له قلب مخلص نبيل ، وكان يزمع التزوج من سمير التى كانت تمتاز من فتيات بابل جميعا بمولدها وجمالها وثروتها . وكان يعطفه عليها ميل نقى متين ، وكانت هى تحبه حبا عنيفا ، وكانا يدنوان من اللحظة السعيدة التى كانت ستجمع بينهما ، ولكنهما ذات يوم كانا يتنزهان معا عند باب من ابواب بابل فى ظلال النخيل التى تزين شاطىء الفرات ، واذا هما يريان رجالا يقبلون عليهما مسلحين بالسيوف والسهام ، وكانوا نفرا من اتباع الفتى اوركان قريب احد الوزراء ، الذى خيل اليه متملقو قريبه الوزير ان كل شيء مباح له . ولم يكن على شيء من طرف زديج او خلقه ، ولكنه كان يرى نفسه خيرا منه ، وكان مغبطا محنقا لانه لم يكن آثر عند الناس من زديج . وقد خيلت اليه هذه الغيرة التى لم تاته الا من الغرور انه يحب سمير . وقد اختطفها اتباعه وكانوا من العنف بحيث آذوها ببعض الجراحات . واسالوا بذلك دم حسناء كان منظرها وحده خليقا ان يشيع الحنان فى انمار جبل ايمايوس ، وكانت تشق السماء بصيحات الشكاة وكانت تدعو : « اى زوجى العزيز انى انتزع انتزاعا من احب الناس الى » . لم يكن يشغلها ماكانت تتعرض له من الخطر لانها لم تكن تفكر الا فى

زديج العزيز . وقد دافع عنهازديج بما تتيح الشجاعةوالحب من قوة ونجدة ، ولم يكن يعينه الا عبدان من رقيقه وقد هزم المغيرين مع ذلك ، ورد سمير الى دارها دامية مغشيا عليها ، فلما افاقت وفتحت عينيهارات محررها ، فقالتله : « اى زديج لقد كنت احبك حب الزوج ، فاما الان فانى احبك كما احب من انا مدينة له بالشرف والحياة . » ولم ير الناس قط قلبا اشد تاثرا من قلب سمير ولارأى الناس قط فما اشد سحرا يعرب عن شعور ساحر بالفاظ من نار يمليها الاعتراف بالجميل والاندفاع فى الحب الذى يملأه الحنان من فمها . وكان جرحها يسيرا ، فبرئت منه فى وقت قصير . اما جرح زديج فكان اشد خطرا ، اصابه سهم قريبا من احدى عينيه فاحدث جرحا عميقا . ولم تكن سمير تطلب الى الالهة الاشفاء عشيقها . وكانت عيناها غارقتين فى الدموع آناء الليل واثناء النهار ، وكانت تنتظر الوقت الذى تستطيع فيه عينا زديج ان تستمتعا بتلقى لحظها ، ولكن دملا ظهر فى العين الجريحة فانذر بخطر عظيم . فذهب الرسل وابعدوا حتى وصلوا الى منفيس يدعون الطبيب العظيم هرميس الذى اقبل تحف به حاشية فخمة . وقد فحص المريض ثم اعلن انه سيفقد عينه . وتنبأ حتى باليوم والساعة اللذين ستقع فيهما هذه الكارثة ، قائلا : « لو قد أصاب الجرح عينه اليمنى لابرأته ؛ اما جراحات العين اليسرى ، فليس لها شفاء . » وقد رنت بابل كلها لزديج ، وتعجبت مع ذلك بما امتاز به هرميس من علم عميق ، ولم يمض يومان حتى انفجر الدمل من تلقاء نفسه وبرىء زديج برءا تاما . هنالك الف هرميس كتابا اثبت فيه انه لم يكن من حق زديج ان يظفر بالشفاء . ولم يقرأ زديج هذا الكتاب ، ولكنه لم يكد يستطيع الخروج من داره حتى تهيأ لزيارة تلك التى كانت معقد امله فى السعادة ، والتى كان حريصا من اجلها

أما جراحات العين اليسرى فليس لها شفاء ..

obeikandl.com

وحدها على ان تكون له عينان . وكانت سمير قد ذهبت الى الريف منذ ثلاثة ايام . وقد عرف زديج فى طريقه اليها ان هذه الحسناء لم تكد تعلم ان حبيبها قد يفقد احدى عينيه حتى اعلنت انها لا تطيق العور وتزوجت اوركان من ليلتها تلك . فلما نمى اليه هذا الخبر خر مغشيا عليه وانتهى به الالم الى حافة القبر ، وقد طالت علته ، ولكن العقل تغلب على الحزن ، بل وجد شيئا من العزاء فى قسوة ماعانى من الالام.

ثم قال لنفسه : « اما وقد لقيت هذا الجموح القاسى من هذه الفتاة التى نشأت فى القصر، فساتخذ لى زوجا من بيئات الشعب » . فاختار ازورا وهى احكم بنات المدينة واحسنهن مولدا . فاقترن بها وعاش معها شهرا ملؤه العطف والحنان ، ولكنه لاحظ فيها شيئا من خفة وميلا شديدا الى الاعتقاد ان اعظم الشبان حظا من الجمال هم اصحاب الحظ العظيم من الفضيلة والذكاء

اقرأ السوادى

كل يوم ثلاثاء

نقد برلمانى ـ اهم الاخبار : ادق الاسرار ، اغرب القضايا

الفصل الثاني

الانف

وذات يوم اقبلت ازورا من نزهتها ، غاضبة ، ثائرة ، صاخبة قال لها : « مابك يازوجي العزيزة؟ وماعسى ان يخرجك من طورك الى هذا الحد ؟ » قالت : « واحسرتاه ! لو رأيت المنظر الذى رايته لهاجك مايهيجني من الغضب . لقد ذهبت اعزى الارملة الشابة خسرو التى اقامت منذ يومين اثنين قبرا لزوجها الشاب . وقد عاهدت الآلهة اثناء حزنها على ان تقيم على هذا القبر ما جرى ماء هذا الجدول قريبا منه . » قال زديج : « هذه امرأة كريمة قد احبت زوجها حقا . » قالت ازورا : « آه لو عرفت ماكان يشغلها حين زرتها ! » « ماذا كان يشغلها اى ازورا الحسناء ؟ » « كانت تحول الجدول من مجراه » . ثم اندفعت فى لوم طويل وهجاء عنيف حتى ضاق زديج بهذه الفضيلة المتكلفة .

وكان له صديق اسمه كادور ، وكان من بين هؤلاء الشبان الذين كانت ازورا تؤثرهم لانهم على حظ عظيم من الامانة والكفاية ، فاظهره على جلية امره ، واستوثق من وفائه بما اهدى اليه من هدايا قيمة . ومضت ازورا تتنفق عند احدى صديقاتها فى الريف يومين ثم عادت فى اليوم الثالث الى دارها . وهنالك اعلن اليها الخدم وهم ينتحبون ، ان زوجها قدمات فجأة من ليلته تلك ، وانهم لم يجرؤا على ان يحملوا اليها نبأ الفاجعة حيث كانت

تستجم ، وانهم قد فرغوا الآن من دفن زديج فى قبر أسرته هناك فى طرف الحديقة . فاجهشت بالبكاء و نتزعت شعرها ، واقسمت لتقضين على نفسها بالموت . فلما كان المساء استأذنها كادور فى ان يتحدث اليها فبكيا معا . فلما كان الغد بكيا أقل مما بكيا امس وجلسا معا الى الغداء . واسر اليها كادور ان صديقه اوصى اليه بمعظم ثروته ؛ ثم لمح لها بانه يرى السعادة فى ان يقاسمها ثروته ؛ عندئذ بكت السيدة ثم غضبت ؛ ثم لانت ؛ وكان العشاء اطول من الغداء . وكان الحديث ادنى الى الثقة ، وانتت ازورا على الفقيد ، ولكنها اعترفت بانه لم يخل من بعض العيوب التى يبرىء منها كادور .

وفى اثناء العشاء شكا كادور المآ عنيفا فى الطحال ، فقلقت السيدة واهتمت ، واحضرت كل ما كان عندها من طيب ؛ لعلها تجد من بينه مايكون فيه شفاء للطحال ، واسفت اشد الاسف لان هرمس العظيم لم يطل لاقامة فى بابل ، بل تفضلت فلمست موضع الالم من جسم كادور . وقالت له فى عطف : « اعرضة انت لهذا الالم ؟ » قال كادور : « انه الم يدنينى غالبا من القبر ، وليس له فيما علمت الا دواء واحد يستطيع ان يرفه على ؛ وهو ان يوضع على جنبى انف رجل مات من امسه . » قالت ازورا : « ياله من دواء غريب . » قال كادور : « ليس اغرب من تمائم السيد ارنو (١) التى يعالج بها الفالج » . وكان هذا الرد مضافا الى كفاية هذا الفتى مقنعا آخر الامر للسيدة . قالت :

---

(١) كان يعيش فى بابل لذلك الوقت رجل يسمى ارنو وكان يداوى الفالج ويتقيه بتمائم تعلق فى العنق

« واخيرا اذا عبر زوجى مـــن حياة امس الى حياة غـد على جسر تشينافار ، فلن يرده الملك عزرائيل عن العبور لان انفـــه اقصر قليلا فى حياته الثانية منه فى حياته الاولى » . ثم اخذت موسى ومضت الى قبر زوجهـا فسقته بدمعها ، ثم دنت تريد ان تجدع أنف زديج الذى رأته مستلقيا فى قبره . هنالك ينهض زديج حاميا انفه باحدى يديه ، واذا الموسى باليد الاخرى ، قائلا: « سيدتى لاتلومى الارملة خسرو فالتفكير فى جدع انفى كالتفكير فى تحويل الجدول عن مجراه . »

الفصل الثالث

الكلب والجواد

وقد تبين زديج ، كما هومقررفى كتاب زند ، ان الشهر الاول من شهور الزواج هوشهرالعسل،وان الشهر الثانى هو شهر الشيح. ثم اضطر بعد قليل الى ان يطلق ازورا التى اصبحت بغيضة العشرة وطلب السعادةفى درس الطبيعة . وكان يقول : « ليس اسعد من رجل فيلسوف يقرأ فى هذا الكتاب العظيم الذى نشره الله امام اعيننا وهوالطبيعة . فالحقائق التى يستكشفها القارىء خالصة له ،يغدو بها نفسه ويرفعها ويعيش هادئا مطمئنا ، لايخاف من الناس شيئا ولا يتعرض لان تدنو منه زوجه الرفيقة به لتجدع انفه »

وقد امتلأ بهذه الخواطر ، واعتزل فى دار ريفية على شاطىء الفرات . وفى هذه الدار لم يكن يشغل نفسه بحساب مايجرى تحت اقواس الجسور من الماء .ولا مايسقط من خط مكعب من المطر فى شهر الفار او فى شهرالشاة . ولم يكن يتخيل ان يتخذ الحرير من نسج العنكبوت اوالخزف من حطام القوارير ، ولكنه درس فى عناية خصائص الحيوان والنبات . ولم يلبث ان انتهى الى مقدار من الفطنة اظهره على الف من الفروق بين اشياء لم يكن الناس يرون بينها الا اشبابها .

وذات يوم كان يمشى قريبا من غابة صغيرة،فرأى خصيا من خصيان الملكة يسرع اليه ومن ورائه جماعة من الضباط يظهر عليهم قلق شديد ويعدون هنا وهناك،كانهم قوم حائرون يبحثون

عن شيء عظيم الخطر قدفقدوه. قال الخصى الاول : « الم تر كلب الملكة يافتى ؟ » قال زديج فى تواضع : « انما هى كلبة لا كلب » . اجاب الخصى الاول :« صدقت » . اضاف زديج : « انها كلبة صغيرة جدا وقدولدت منذ وقت قصير وهى تظلع برجلها الامامية اليسرى ،ولها اذنان مسرفتان فى الطول ». قال الخصى الاول مجهدا : «فقدرايتها اذن؟» اجاب زديج : « لا ، لم ارها قط ، ولم اعلم قط ان الملكة كلبة » .

وفى الوقت نفسه بالضبط على نحو ماتجرى عليه المصادفات الغريبة افلت اجمل خيل الملك من يد سائسه وهام فى سهل بابل . واقبل كبير الساسة ومن ورائه اصحابه يبحث عن هذا الجواد فى لهفة تشبه لهفة الباحثين عن الكلبة . واتجه كبير الساسة الى زديج يسأله :« ارايت جواد الملك ؟ » قال زديج : « انه احسن الجياد ركضا، انه يرتفع فى الجو خمسة اقدام ، وان حذاءه صغير جدا ، وله ذيل طوله ثلاثة أقدام ونصف قدم ، وشكائم لجامه من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطا ، وسنابكه من فضة معيارها احد عشر دانقا » : قال كبير الساسة : « اى طريق سلك ؟ واين يكون؟» قال زديج : « لم اره ولا سمعت به قط »

فلم يشك كبير الساسة ولا الخصى الاول فى ان زديج قد سرق جواد الملك وكلبة الملكة ،فقاداه امام جماعة القضاة الذين قضوا عليه بالجلد وبأن ينفق مابقى من حياته فى سيبيريا . ولم يكد الحكم يصدر حتى وجد الباحثون الجواد والكلبة ، واضطر القضاة فى الم الى ان يغيروا حكمهم ، ولكنهم قضوا على زديج بغرامة قدرها اربعمائة مثقال من الذهب لانكاره رؤية ما راى . ولم يكن بد من اداء الغرامة اولا ثم يؤذن له بعد ذلك بالدفاع عن نفسه امام القضاة ، وقد دافع عن نفسه قائلا :

« ياجوم العدل ، وياكهوف المعرفة ، ويامرايا الحقائق ، انتم الذين لهم ثقل الرصاص ، وصلابة الحديد ، واشراق الماس ، وكثير من خصال الذهب . اما وقد اذن لى بالحديث امام هذه الجماعة الجليلة ، فانى اقسم باورزماد ما رايت قط الكلبة المحترمة التى فقدتها الملكة ، ولا الجواد المقدس الذى فقده ملك الملوك . واليكم ماعرض لى : لقد كنت اتنزه قريبا من الغابة الصغيرة حيث رايت الخصى الجليل والسائس العظيم البعيد الصوت ، فرايت على الرمل اثر حيوان ، فتفرست فى يسرانها آثار كلب صغير . ورايت خطوطا خفافا طوالا قد طبعت على مرتفعات صغار بين آثار الارجل ، فعرفت انها كلبة قد حفلت اطباؤها فتدلت ، وانها لذلك قد ولدت منذ ايام . ورايت آثارا فى اتجاه آخر مجاورة لآثار الرجلين الاماميتين ، فعرفت ان للكلبة اذنين مسرفتين فى الطول . ولاحظت ان الرمل اقل تأثرا باحدى الارجل منه بالثلاث الاخرى فتبينت ان كلبة ملكتنا الجليلة عرجاء شيئا ما ان اذن لى فى ان اتحدث على هذا النحو .

« اما جواد ملك الملوك ، فقد كنت اسعى فى طرق هذه الغابة ، فرايت آثار السنابك لجواد ؛ ورايتها كلها تقع على مسافات متساوية فقلت لنفسى هذا فرس كامل الركض . وكان تراب الشجر فى طريق عرضها سبعة اقدام قد زال عن يمين وشمال فى ارتفاع قدره ثلاثة اقدام ونصف قدم ، فقلت لنفسى : « ان لهذا الفرس ذيلا بهذا الطول قد ازال بخطواته التراب عن هذه الاشجار » . ورايت تحت الشجر الذى يمد من اغصانه مهدا يرتفع خمسة اقدام ورقا حديث عهد بالسقوط ، فعرفت ان هذا الجواد قد مس الغصون ، وان ارتفاعه خمسة اقدام . اما شكيمته فيجب ان تكون من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطا لانه حك بها حجرا يقاس به الذهب وقد جربته . ثم عرفت آخر الامر من

آثار سنابكه على حجر من نوع آخر ان هذه السنابك من فضة معيارها احد عشر دانقا »

وقد عجب القضاة جميعا بدقة زديج وفطنته . وارتفع امر هذه القصة الى الملك والملكة، فلم يكن للناس حديث فى القصر الا زديج . ومع ان جماعة من الكهنة قد اشاروا بتحريقه لانه ساحر ، فقد امر الملك ان ترداليه غرامة اربعمائة المثقال من الذهب التى فرضت عليه . وقداقبل الكتاب والحجاب والنواب الى دُره فى موكب عظيم يحملون اليه المثاقيل لربع المئة ، ولم يحتجزوا منها الا ثلاثمائة وثمانية وتسعين مثقالا على انها نفقات القضاء ، وطلب خدامهم بعض العطاء .

وقد راى زديج الى اى خطر يتعرض الانسان حين يكون واسع العلم ، وعاهد نفسه على الايقول مايرى حين تسنح له اول فرصة

وقد سنحت هذه الفرصة بعد وقت قصير . فقد هرب سجين من سجن الدولة ومر من تحت نافذته . فلما سئل زديج اجاب بانه لم ير شيئا . ولكن الحجة اقيمت عليه انه كان ينظر من نافذته ، وقضى عليه بغرامة قدرها خمسمائة مثقال من ذهب ، وشكر هو قضاته لانهم رفقوا به ، كما جرت العادة فى بابل ان يرفع المحكوم عليهم شكرهم الى القضاة . قال زديج لنفسه : « ياالله ! ان الانسان لخليق بالرثاء حين يتنزه فى غابة مرت بها كلبة الملكة وجواد الملك، وانه لخطر ان ينظر الانسان من نافذته ، وانه لعسير ان يسعد الانسان فى هذه الحياة »

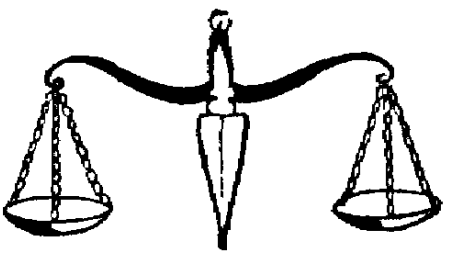

الفصل الرابع

الحسود

اراد زديج ان يتعزى بالفلسفة والصداقة عما جر الحظ عليه من الآلام . وكانت له فى ضاحية من ضواحى بابل دار انيقة قد زينت فى ذوق ، جمع فيها الوان الفنون وضروب اللذات التى تليق بالمثقف الكريم . فكانت خزانة كتبه مفتوحة فى الصباح للعلماء جميعا ، وكانت مائدته فى المساء ممدودة لكرام الرفاق . ولكنه لم يلبث ان تبين ان خطر العلماء شديد ، فقد اثيرت خصومة عنيفة حول قانون من قوانين زرادوشت كان يحظر اكل العنقاء . قال بعضهم : « كيف يحرم اكل العنقاء مع انها غير موجودة ؟ » وقال بعضهم : « يجب ان تكون موجودة مادام زرادوشت قد حرم اكلها » . وقد اراد زديج ان يوفق بين المتخاصمين فقال : « اذا وجدت العنقاء فلنجتنب اكلها ، واذا لم توجد فليس الى اكلها سبيل ، وكذلك نطيع جميعا امر زرادوشت » .

وكان هناك عالم قد ألف كتابا من ثلاثة عشر مجلدا فى خصائص العنقاء ، وكان فوق ذلك من كبار اصحاب الكرامات ، فاسرع الى عظيم من الكهنة يسمى يبور ، وكان اشد الكهنة حمقا ، واشدهم من اجل ذلك تعصبا ، فاتهم امامه زديج . وكان هذا الكاهن خليقا ان يذيق زديج عذاب الهون تمجيدا للشمس ، وان يتلو فى اثناء ذلك كتاب زرادوشت راضى القلب مطمئن

الضمير . ولكن الصديق كادور - وصديق واحد خير من مئة قسيس - زار بيبور الشيخ وقال له : «لتحيى الشمس ، ولتحيى العنقاء ! احذران تعاقب زديج ، فهو قديس ، يملك فى داره ضروبا من العنقاء ، ولكنه لا يأكل منها . وخصمه الذى يتهمه صاحب بدعة يزعم ان للارنب رجلا مشقوقة ، وانها ليست حيوانا نجسا » . قال بيبور وهو يهز رأسه الاصلع : « هذا حسن فلنعذب زديج لانه ذكر العنقاء بالسوء ، ولنعذب خصمه لسوء رايه فى الارنب » . وقد استطاع كادور ان يصلح الامر بواسطة غانية من غوانى الشرف كان قد أولدها ولدا . وكانت لها مكانة ممتازة عند جماعة الكهنة ، ولم يعذب احد . فجمجم لذلك بعض العلماء وتنبأوا بسقوط بابل . وصاح زديج : « ماقوام السعادة ! كل شىء فى هذا العالم يضطهدنى حتى الكائنات التى لاتوجد » ومقت العلماء وازمع الا يحيا الا مع اصدقاء لذته .

ثم جعل يجمع فى داره اشرف الرجال واجمل النساء من اهل بابل ، وكان يولم لهم ولائم انيقة ، ويقوم بين يديها بفنون من الموسيقى وضروب من الاحاديث العذاب التى حرص على ان تبرأ من تكلف النكتة ، لان هذا التكلف هو اقرب الطرق الى افساد الذوق وافساد الصلات بين الناس . ولم يكن للغرور اثر فى تخير الاصدقاء ولا فى تخير اصناف الطعام ، لانه كان يؤثر الحقائق على المظاهر ، فيظفر من الاكبار والتقدير بما لم يكن يريد .

وكان يقيم فى دار امام داره اريماز ، رجل كان منظره البشع يصور سوء سريرته . كان الحسد ياكل قلبه والكبر ينفخ جسمه ، وكان على ذلك مملا لكثرة تكلفه فى الحديث . لم يتح له النجاح قط فكان يتعزى عن ذلك بالغيبة . وكان على ثرائه

فاخـــذ لوبحة وكتب عليها أبياتا اربعة ..

obeikandl.com

يجد اشق الجهد فى ان يجمع حوله المتملقين . وكانت ضوضاء العربات التى تدخل دار زديج كل مساء تؤذيه ، وكان الثناء على زديج يزيده حنقا الى حنق . وكان يلم بدار زديج احيانا ويجلس الى المائدة دون ان يدعى اليها ؛ فكان يفسد بمحضره بهجة الجماعة ؛ كما يقال عن بعض الطير البغيضة : انها تفسد ماتمس من الطعام . وقد هم ذات يوم ان يولم تكريما لاحدى السيدات ، ولكنه بدا له فلم يستقبلها وتناول العشاء عند زديج . وكان مرة اخرى يتحدث الى زديج فى القصر وهما يسعيان ، فلقيهما احد الوزراء ، واذا هذا الوزير يدعو زديج الى طعامه دون ان يدعو صاحبه . واشد انواع العداوة لايعتمد غالبا على اسباب اعظم خطرا من هذه الاسباب التافهة . وقد ازمع هذا الرجل الذى كان يعرف فى بابل كلها بالحسود ان يهلك زديج لان الناس كانوا يلقبونه بالسعيد . وفرص الاساءة تسنح مئة مرة فى اليوم على حين لاتسنح فرصة الاحسان الا مرة واحدة فى العام ، كما يقول زرادوشت .

وقد زار الحسود ذات يوم زديج ، فلقيه يتنزه فى الحديقة مع صديقين وسيدة حسناء كان يوجه اليها بين حين وحين بعض الغزل لايريد به اكثر من قوله . وكان الحديث يدور حول حرب انتصر فيها الملك على امير من عماله فى اركانيا . وكان زديج قد اشاد بشجاعة الملك ، وجعل يثنى عليه ويثنى على هذه السيدة . وقد اخذ لوبحة وكتب عليها ابياتا اربعة دفعها الى السيدة لتقراها . فطلب اليه اصدقاؤه ان ينشدهم اياها ، فمنعه من ذلك التواضع اوشىء من الاعتداد بالنفس ، كما يكون عند الرجل الكريم . وكان يعلم ان الشعر المرتجل لايلائم الا من وجه اليه من الناس ، فحطم لوبحته التى كتب فيها هذه الابيات شطرين ، والقاهما بين جماعة من الورد ، ثم طال البحث

عنهما فى غير عناء . وقد تلبث الحسود فى الحديقة بعد انصراف الجماعة ، والح فى البحث حتى وجد شطرا من شطرى اللويحة. وكانت اللويحة قد حطمت بحيث اصبح كل شطر من اشطر الابيات مستقلا يدل على معنى خاص. وارادت المصادفة الغريبة ان تدل هذه الابيات المشطورة القصار على معنى يصور ابشع هجاء للملك ، فقد كان يقرأ فيها :

باقبح جريمة
ثبت على العرش
من هو فى السلم العام
عدو وحيد

وقد سعد الحسود لاول مرة فى حياته ، فبين يديه مايمكنه من ان يهلك رجلا خيرا محببا الى النفوس . وقد ملأته هذه السعادة القاسية ، فاوصل الى الملك هذا الهجاء الذى خطته يد زديج ، واذا زديج يلقى فى السجن ومعه السيده وصديقاه . ثم نظرت قضيته على عجل دون ان يؤذن له بالدفاع عن نفسه . فلما احضر ليسمع الحكم عليه مر فى طريقه بالحسود الذى قال له ان شعره سخيف لاقيمة له. ولم يكن زديج يزعم انه شاعر مجيد ، ولكنه كان غارقا فى اليأس لاخذه بجريمة هجاء الملك ، ولانه يرى سيدة وصديقين يظلون فى السجن مع انهم لم يقترفوا اثما. ولكن كذلك كانت قوانين بابل . وقد سيق الى العذاب ، فجعل يسلك طريقه بين جماعة من المستطلعين لايستطيع احد منهم ان يظهر رثاء له او عطفاً عليه ، وانما كانوا يسرعون اليه لينظروا فى وجهه وليتبينوا ايستقبل الموت مبتسما له ، مرتاحا اليه . وكانت اسرته وحدها حزينة لانه لم يترك لها ميراثا ، اذ كانت

ثلاثة ارباع ثروته مصادرة لخزانة الملك وربعها مصادرا مكافاة للحسود .

وبينما كان زديج يتهيأ للقاء الموت طارت ببغاء الملك من احدى شرفات القصر الى حديقة زديج فوقعت على جماعة من الورد . وهناك كانت خوخة قد سقطت من احدى الاشجار فاصابت قطعة من لويحة من لويحات الكتابة فلصقت بها . واحتملت الببغاء الخوخة وما لصق بها ، ومضت حتى وضعت ذلك فى حجر الملك . وكان الملك طلعة ، فقرأ فى هذه القطعة من اللويحة كلمات لاتدل على شيء ولكنها تشبه ان تكون قوافى لبعض الشعر ، وكان يحب الشعر . وللملوك الذين يحبون الشعر حظ من سعة الحيلة ، فدعته مغامرة ببغائه الى التفكير . وكانت الملكة تذكر ماكتب على القطعة التى حملها حاسد زديج فأمرت باحضارها . فعورضت القطعتان ، وتبين انهما تتفقان اتفاقا تاما ، وهنالك قرئت الابيات كما كتبها زديج ، فاذا هى كما يأتى :

لقد رأيت الارض تملؤها اضطرابا اعظم الجرائم .

وقد ثبت الملك على العرش قادرا على ضبط كل شيء

واذا وسعت السلم كافة الناس فالحب وحده هو الذى يثير الحرب وهو العدو الوحيد الذى يجب ان يخاف .

وما هى الا ان يأمر الملك باحضار زديج ليمثل بين يديه ، وبان يخرج من السجن صاحبا والسيدة الجميلة . فلما مثل زديج بين يدى الملك والملكة قبل الارض بين ايديهما ، وتوسل اليهما ان يغفرا له لهذه الابيات الرديئة التى اقترفها ، وقد تحدث فى ظرف ولباقة وذكاء ، فرغب الملك

والملكة فى ان يرياه . وقد عاد فازداد اعجابهما به ، وقد اهديت اليه ثروة الحسود الذى كاد له بغير الحق . ولكن زديج رد هذه الثروة الى الحسود الذى لم يتأثر الا بان ثروته قد ردت اليه . وقد جعل رضا الملك عن زديج يزداد من يوم الى يوم ، فكان يحضره كل لذاته ويشاوره فى كل اعماله . وجعلت الملكة منذ ذلك الوقت تنظر اليه فى شىء من العطف كان خليقا ان يصبح خطرا عليها وعلى زوجها الملك العظيم وعلى زديج وعلى الدولة كلها . وجعل زديج يظن ان ليس من العسير ان يكون الانسان سعيدا .

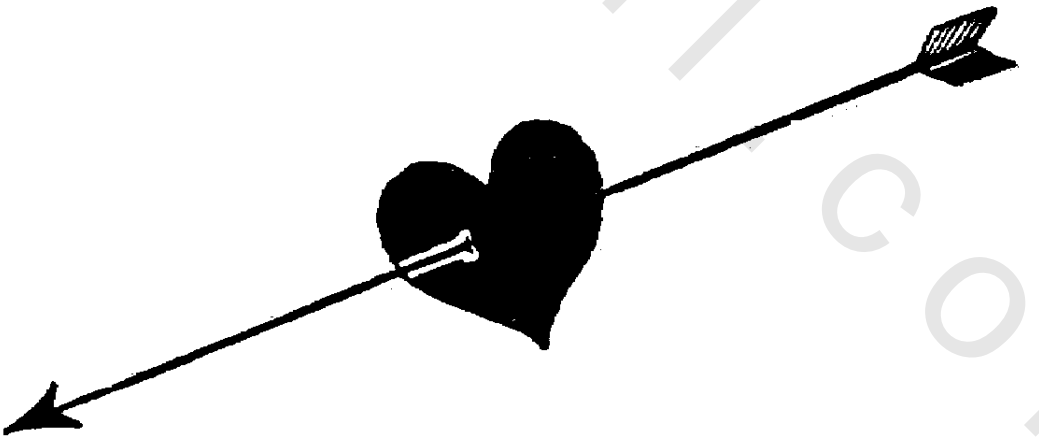

الفصل الخامس

العيد

وقد اقبل العيد الذى كان يقام فى بابل كل خمسة اعوام . وكانت العادة قد جرت بان يعلن فى بابل كل خمس سنين اسم الرجل الذى اتى عملا يدل على الكرم والفضل . وكان العظماء والكهان هم القضاة . وكان محافظ المدينة يعرض امام القضاة احسن ما أبلى الناس من بلاء اثناء ولايته للحكم . ثم يتداول القضاة وينطق الملك بالحكم . وكان الناس يأتون الى هذا الحفل من اقصى الارض . وكان الفائز يتلقى من يد الملك كأسا من الذهب الخالص مرصعة بنفيس الجوهر ، ويسمع من الملك هذه الكلمات : « تقبل جائزة الكرم هذه وليكثر الله بين رعيتى من امثالك » .

فلما كان يوم العيد ظهر الملك على عرشه يحف به وجوه الدولة وكهانها ونواب الاقاليم الذين اقبلوا يشهدون هذا اليوم الذى لا يكتسب فيه المجد بسباق الخيل ولا باصطراع المصطرعين ، وانما يكتسب بالاستباق الى الفضيلة والتنافس فى الخير . وقد عرض محافظ المدينة بصوت جهورى الاعمال النبيلة التى تؤهل اصحابها لهذه الجائزة السامية . فلم يذكر كبر النفس الذى اتاح لزديج ان يرد على الحسود ثروته ، فلم يكن هذا العمل من الاعمال التى تهيىء صاحبها للاشتراك فى هذه المسابقة .

وانما قدم اول الامر اسم قاض دفع فى بعض القضايا الى خطأ لم يكن مسئولا عنه ، فنزل عن ثروته كلها للخصم الذى خسر قضيته بهذا الخطأ ، وكانت ثروة القاضى تعدل ماخسر الخصم .

ثم قدم بعد ذلك اسم فتى كان يحب فتاة اشد الحب ؛ ويريد ان يتخذها له زوجا ؛ ولكنه علم ان لها محبا يكاد يهلكه الحب فنزل له عنها . ثم لم يكتف بهذه المكرمة وانما أدى المهر من ماله الخاص .

ثم قدم بعد ذلك اسم جندى ابلى فى حرب هيركانيا بلاء حسنا يتضاءل بالقياس اليه بلاء سابقيه. فقد اختطف جنديان من جيش العدو خليلته وكان يدافع عنها ليستردها منهما، واذا النبأ يصل اليه بان جنودا آخرين من جيش العدو يريدون ان يختطفوا امه غير بعيد منه ، فترك خليلته باكيا واسرع فاستنقذ أمه ، ثم عاد الى خليلته فوجدها تحتضر . فهم ان يقتل نفسه حزنا ، ولكن أمه بينت له انه وحيدها وليس لها عائل غيره ، فكان له من الشجاعة ما اعانه على احتمال الحياة فى سبيل أمه .

وكان القضاة يميلون الى هذا الجندى . ولكن الملك قال : «ان بلاءه وبلاء من سبقه حسن ، ولكنه لا يدهشنى ، اما زديج فقد ابلى امس بلاء راعنى ، فقد غضبت منذ ايام على وزيرى وعلى اثيرى كوريب ، وكنت ألومه فى عنف شديد ، وكانت الحاشية كلها تؤكد لى انى كنت به رفيقا، وكانوا جميعا يستبقون ايهم يكون اشد اساءة فى القول الى كوريب . فسألت زديج عن رايه فيه ، فاذا هو يجترىء فيثنى عليه . واعترف انى قرأت فى تاريخنا ان الناس كثيرا ما اصلحوا خطأهم باتفاق اموالهم كلها ، وانهم كثيرا ما نزلوا عن خليلاتهم وآثروا امهاتهم على عشيقاتهم ، ولكنى لم اقرأ قط ان رجلا من أهل القصر استطاع ان يثنى على وزير مقال قد غضب عليه ملكه غضبا شديدا . وانى امنح كل واحد من هؤلاء الابطال عشرين الف دينار ذهبا خالصا ، ولكنى اخص بالكأس زديج . »

قال زديج :

ـ مولاى : ان جَـــلالتك وحدها هى التى تستحق الجائزة، لانها أتت عملا لانظير له فى الروعة. فأنت يا مولاى ملك ، وانت مع ذلك لم تغضب على عبدك حين اجترا على ان يعارضـــك وانت مغيظ .

وقـــد أعجب النـــاس بالملك وبزديج . وتلقى القاضى الـــذى نزل عن ثروته ، والعاشـــق لذى زوج خليلته من صديقه ، والجندى الذى آثر سلامة أمه على عشيقته هدايا الملك ، ورأوا اســـماءهم تسجل فى ســـجل الكرماء ، وتتفى زديج الكأس . واشتهر الملك بأنه ملك عظيم خير ، ولكنه لم يحتفظ بهـــذه الشهرة وقتاً طويلا . واختص هذا اليوم بأعياد اطول مما قرر القانون . وما زال الناس يذكرون هـــذه الاعياد فى آسيا الى الآن . وكان زديج يقول : « انى اذن لسعيد . » ولكنه كان مخطئا .

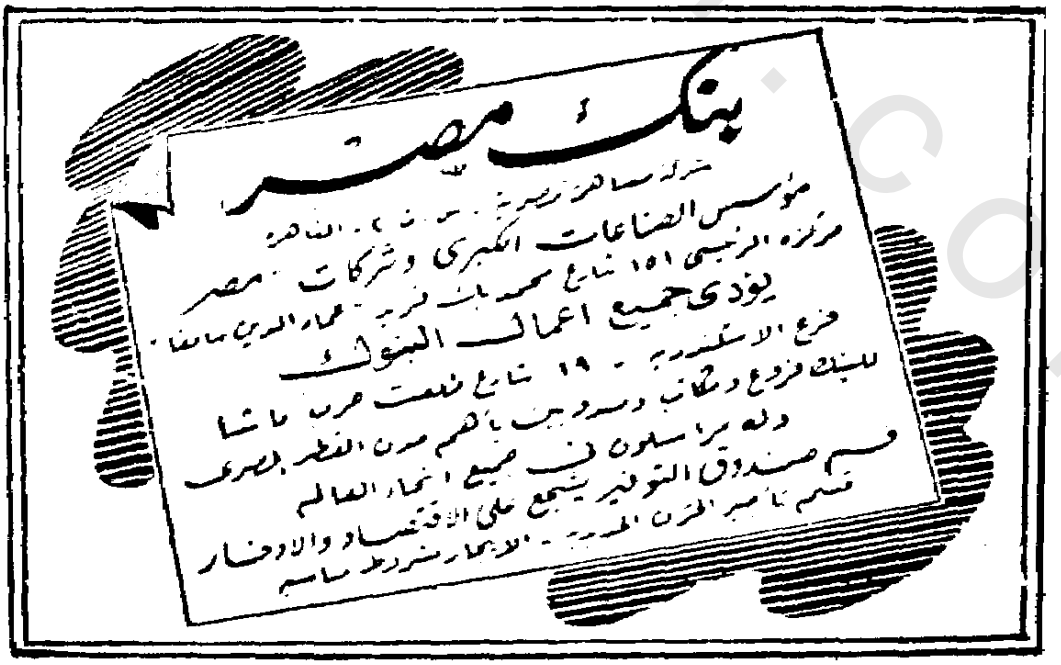

الفصل السادس

الوزير

وقد فقد الملك وزيره الاكبر ؛ فاختار زديج ليشغل هذا المنصب، وصفقت لهذا الاختيار حسان بابل جميعا . فلم تعرف الدولة منذ انشائها وزيرا له هذا الشباب . وحزن رجال القصر جميعا حتى انتهى الأمر بالحسود الى السل الذى انتهى به الى ان يبصق دما ، وورم انفه ورما مروعا . أما زديج فقد رفع شكره الى الملك والملكة ثم ذهب ليهدى شكره الى البيغاء قائلا لها : « ايها الطائر الجميل ! لقد انقذت حياتى وجعلتنى وزيرا اكبر . ما اكثر ما اسأت الى كلبة الملكة وجواد الملك ، وما أكثر ما قدمت الى أنت من الاحسان ! وكذلك يتعلق مصير الناس بأوهى الاسباب . » ثم اضاف الى ذلك قوله : « ولكن هذه السعادة الغريبة خليقة ان يكون امدها قصيرا . » قالت البيغاء : « نعم ! » فوجم زديج لهذا الجواب ، ولكنه على ذلك كان عالما بطبائع الاشياء والاحياء ، وكان يعرف ان البيغاء لم تطلع قط على علم الغيب فلم يطمئن عاد الى الثقة والاطمئنان ؛ ونهض بأعباء الوزارة على احسن وجه ممكن .

فاشعر الناس جميعا بالقوانين من سلطان مقدس ، ولم يشعر احدا ما بثقل كبريائه الخاصة . ولم يفرض رأيه على الديوان ، وانما كان لكل وزير ان يجهر برأيه دون ان يسوءه او

يتعرض لسخطه . وكان اذا جلس للقضاء لم يقض هو ، وانما كان يترك القضاء للقانون ، ولكنه كان يلطف القانون ان آنس فيه قسوة أو غلوا فى العنف . وكان اذا حدثت واقعة لم يعرض لها القانون قضى فيها بالعدل حتى كانه زرادوشت .

فمنه تعلمت الامم هذا المبدأ الخطير ، وهو ان انقاذ المجرم خير من الحكم على البرىء . وكان يعتقد ان القوانين شرعت لاغاثة المواطنين كما شرعت لاخافتهم . وكان يمتاز بالحرص على اظهار الحقيقة التى يحرص الناس كلهم على اخفائها .

ولم يكد ينهض باعباء الحكم حتى انتفع فيه بذكائه كله . وكان تاجر كبير من تجار بابل قد قضى نحبه فى الهند ، وكان قد قسم ثروته بين ابنيه قسمة عدلا ، على ان يزوجا اختهما ، ثم ترك ثلاثين الف دينار ذهبا على ان تكون منحة لأى ابنيه يظهر انه اشد حبا لابيه . فاما الابن الاكبر فاتخذ لابيه قبرا ، واما ابنه الاصغر فزاد من نصيبه فى الميراث مهر أخته ، وكان الناس يقولون : « ان الابن الاكبر مؤثر اباه على حين ان الابن الاصغر يؤثر أخته ، فللابن الاكبر يجب ان تؤول هذه الثلاثون الفا من الدنانير . »

اما زديج فدعاهما الى المثول بين يديه واحدا فى اثر صاحبه . وقال للاكبر : « ان أباك لم يمت ، وانما برىء من علته الاخيرة وعاد الى بابل . » قال الفتى : « الحمد لله ولكن هذا القبر قد كلفنى كثيرا من المال ! » قال زديج للابن الاصغر ما قاله لاخيه فقال : « الحمد لله لاردن الى أبى نصيبى من الميراث ، ولكنى اود لو تركت لاختى ما قدمت اليها منه . » قال زديج : « لن ترد شيئا وستساق اليك الثلاثون الفا من الدنانير ، فانت الذى تؤثر اباك بالحب .

وكانت فتاة عظيمة الثراء قدوعدت كاهنين بالزواج ؛ وبعد ان تثقفت اشهرا على الكاهنين أصبحت حاملا ذات يوم. وكان كلا الكاهنين يريد ان يتخذها لنفسه زوجا . اما هى فاعلنت انها لن تختار منهما الا الذى أتاح لها ان تمنح الدولة مواطنا جديدا . قال احدهما : « فانا الذى اتاح لها هذا المواطن . » قال الآخر : « بل انا الذى اتيحت له هذه المزية . » قالت الفتاة : « فانى اختار منكما ايكما يكون اقدر على ان يربى الطفل تربية ممتازة . » وقد ولدت غلاما وتنافس الكاهنان فى تربيته . وقد رفعت القضية الى زديج ، فدعا الكاهنين وقال لاولهما : « ماذا تريد ان تعلم الصبى ؟ » قال الكاهن : « سأعلمه الخطابة والمنطق والفلك وخصائص الشياطين ، وسأعلمه حقيقة الجوهر والعرض والمجرد والمركب ، والوحدات التى يتألف منها الكون والنظام الذى سبق به القضاء . » وقال الكاهن الآخر : « سأحاول ان اجعله عدلا خليقا بأن يكون له اصدقاء . » قال له زديج : « لتكن اباه أو لا تكن ؛ فانت الذى سيتزوج أمه » .

وكانت الشكوى ترتفع الى القصر فى كل يوم من حاكم ميديا ، وكان يسمى ايراكس ؛ فقد كان سيدا عظيما كريم الطبع قد افسده الغرور . وحب اللذة ، وكان لا يكاد يحتمل ان يتحدث اليه الناس ولا يسمح بأن يخالفه مخالف . ولم يكن الطاووس اشد منه غرورا ، ولم يكن الحمام اشد منه ايثارا للذة ، ولم تكن السلحفاة اشد منه حبا للكسل . ولم يكن ينعم الا بالمجد الباطل واللذة الكاذبة . وقد حاول زديج اصلاحه .

فأرسل اليه من قبل الملك موسيقيا بارعا يصحبه اثنا عشر من المغنين واربعة وعشرون من الموقعين . وارسل اليه مع هؤلاء

قيما على الخدمة ومعه ستة من السعاة واربعة من الحجاب لم يكن يباح لهم ان يتركوه ، وصدر أمر الملك باتباع النظام الآتى دون مخالفة عنه او خروج عليه . واليك كيف نفذ هذا النظام .

لم يكد ايراكس يفيق من نومه فى اليوم الأول حتى دخل عليه استاذ الموسيقى ومعه المغنون والموقعون ، فغنوا له اغنية استمرت ساعتين ، وكان يتردد فيها كل ثلاث دقائق هذا الكلام :

ما احسن بلاءه

ما اجمله ! ما اعظم خطره !

ما اجدر مولانا

بان يرضى عن نفسه !

فلما فرغ المغنون تقدم احد الحجاب فألقى بين يديه خطبة استمرت ثلاثة ارباع الساعة لم تشتمل الا على الثناء عليه بما ليس فيه . فلما انتهت الخطبة قيد الى المائدة على نغم الموسيقى وقد اتصل الغداء ثلاث ساعات لم يكن يهم فيها بالكلام حتى يقول الحاجب الاول :

« لن يقول الا صوابا » ولا يكاد ينطق بكلمات اربع حتى يقول الحاجب الثانى : « لقد اصاب . » ويضحك الحاجبان الاخران مما قال او مما كان يمكن ان يقول . فاذا فرغ من غدائه اعيدت عليه الاغنية .

وقد وجد فى يومه الاول لذة اى لذة ، واعتقد ان الملك انما اراد ان يعطيه حقه من التكريم . فلما كان اليوم الثانى وجد فيه من اللذة اقل مما وجد فى اليوم الاول . فلما كان اليوم الثالث ضاق به شيئا . فلما كان اليوم الرابع لم يستطع له احتمالا .

فلما كان اليوم الخامس وجد فيه عذابا شديدا . ثم ضاق آخر الامر بكثرة ما كان يقال له من انه خليق ان يرضى عن نفسه وبكثرة ما كان يقال له لقد اصاب ، وبكثرة ما كان يلقى بين يديه من الخطب فى ساعة معينة من كل يوم . فكتب الى القصر يتوسل الى الملك فى ان يتفضل فيسترد حجابه ومغنيه وخدامه، ويعد بانه سيحرص على ان يكون فى مستقبل ايامه قليل الغرور كثير النشاط ، ثم اعرض عن الثناء الباطل واللذة الكاذبة واصبح سعيدا . « فان اللذة المتصلة ليست من اللذة فى شىء»، كما يقول الكتاب المقدس للبراهمة .

الفصل السابع

الاستقبالات والخصومات

وكذلك كان زديج يظهر فى كل يوم دقة ذكائه وكرم نفسه . وكان الناس يعجبون به ، وكانوا مع ذلك يحبونه ؛ ويرون انه اسعد الناس ، وكان اسمه يملأ الدولة كلها ، وكان النساء جميعا ينظرن اليه ، وكان المواطنون جميعا يثنون على عدله ، وكان العلماء يرون ان مكانه منهم مكان الوحى ، وكان الكهنة انفسهم يعترفون بانه يحيط من العلم باكثر مما يحيط به عظيمهم الشيخ بيبور . وكان العهد بعيدا بقضية الحقاء . ولم يكن الناس يقبلون الا ما كان زديج يرى انه خليق بالقبول .

وكانت فى بابل خصومة عظيمة قديمة قد اتصلت منذ خمسة عشر قرنا ، وانقسمت لها الدولة الى فريقين متعاديين ؛ احدهما كان يرى الا يجوز ان يتخطى الداخل عتبة المعبد لمترا الا بقدمه اليسرى ، والآخر كان يمقت هذه العادة أشد المقت ؛ ولا يدخل المعبد الا برجله اليمنى . وجعل الناس ينتظرون يوم العيد الاكبر للنار المقدسة ليروا اى المذهبين يؤثر زديج . وكانت أعين العالم كله تتجه الى رجليه ، وكانت المدينة كلها مضطربة قلقة . ولكن زديج دخل المعبد ونبا فلم يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، ثم بين للناس فى خطبة رائعة ان اله السماء والارض الذى لا يختص احدا بفضله لا يؤثر قدما على قدم سواء اكانت اليمنى او اليسرى .

وقد زعم الحسود وامراته ان خطبته لم تشتمل على مقدار ملائم من المجاز وانه لم يرقص فيها التلال والجبال. وكانا يقولان ان خطبته جافة لابراعة فيها فليس يرى فيها البحر هاربا ولا النجوم متساقطة ولا الشمس ذائبة كما ، يذوب الشمع ، فليس له الاسلوب الشرقي الجميل. اما زديج فكان يكفيه ان يكون اسلوبه ملائما لعقله . وقد سار الناس كلهم على اثره ، لا لانه كان على الصراط المستقيم ولا لانه كان حريصا على موافقة العقل، بل لانه كان الوزير الاول.

وهو كذلك قد قضى قضاء حسنا بين الكهنة البيض والكهنة السود . وكان البيض يزعمون ان من الاثم أن يتجه الناس الى المشرق اذا صلوا في الشتاء ، وكان السود يؤكدون أن الله يكره الذين يصلون الى المغرب في الصيف ، فامر زديج أن يولى الناس وجوههم في الصلاة حيث يشاءون . وقد نظم وقته ، فكان يصرف الاعمال الخاصة والعامة في الصباح ، وينفق بقية اليوم في تجميل بابل . وكان يامر بتمثيل المأساة التي تبكي والملهاة التي تضحك . وقد احيا هذه العادة بعد أن ماتت لانه كان عظيم الحظ من الذوق ، ولم يكن يزعم انه يعرف الفن خيرا من اهله ، وانما كان يكافىء أصحاب الفن بالمال وانواع التمييز ولا يخفى الغيرة من تفوقهم . فاذا كان المساء فرغ لتسلية الملك والملكة خاصة . وكان الملك يسميه الوزير الاكبر ، وكانت الملكة تسميه الوزير الظريف ، وكانا يضيفان كلاهما أن الدولة كانت تتعرض بفقده لشر عظيم.

ولم يتح لوزير قط أن يستقبل السيدات بمقدار ما كان

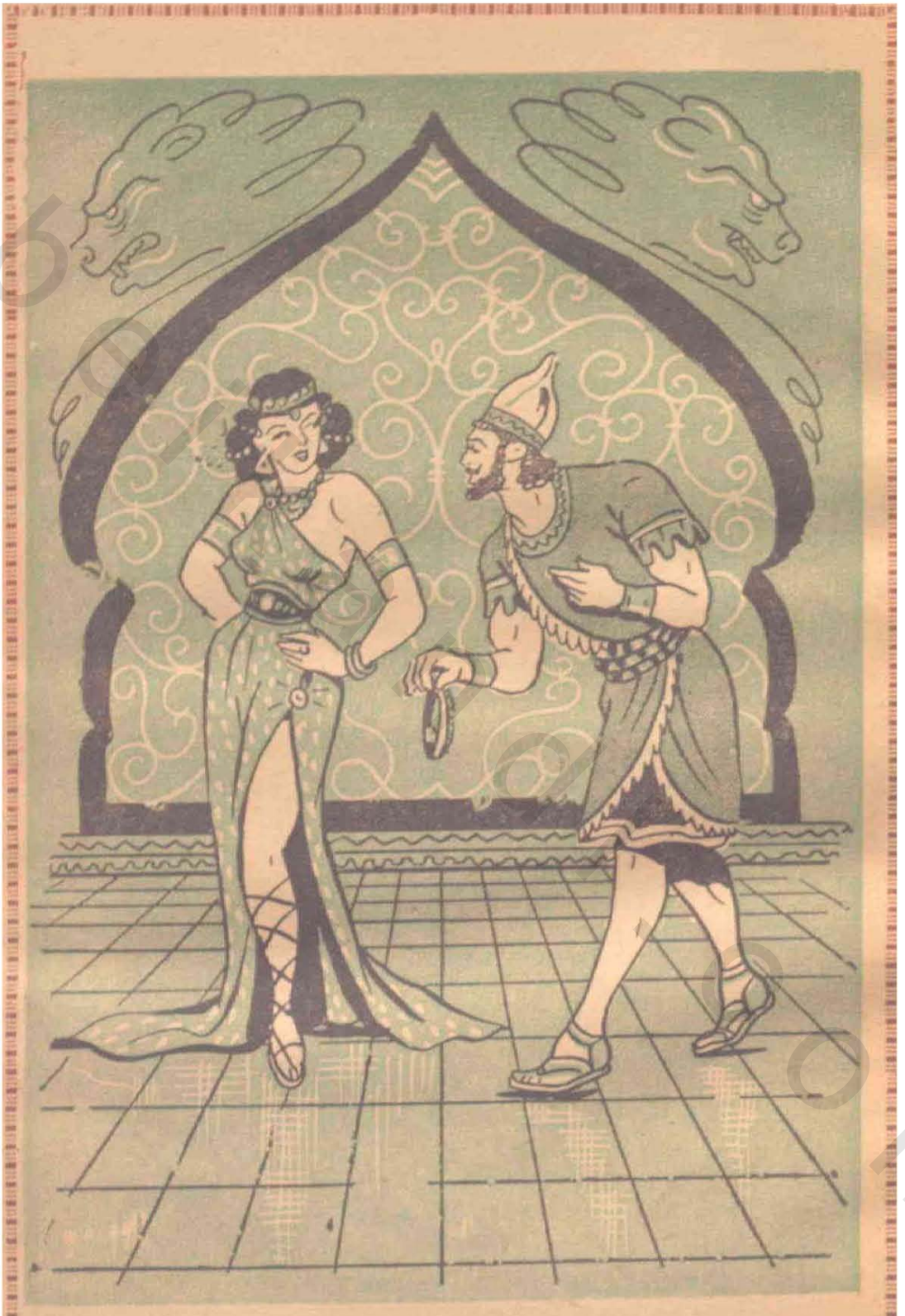

وقد التقطه زديج بادىه المالـــوف

obeikandl.com

يستقبلهن . وكان أكثر من يسعين اليه يعرضن عليه امورا لا تعنيهن ليحدثن بينهن وبينه امورا ذات بال . وكانت زوج الحسود منهن فى الطليعة ، وقد اقسمت له بمترا وبالزند افستا وبالنار المقدسة ، انها كرهت سيرة زوجها معه ، ثم أسرت اليه بعد ذلك ان هذا الزوج غيور عنيف ، ثم لمحت له بان الآلهة يعاقبونه على ذلك فيحرمونه الاستمتاع بهذه النار المقدسة التى ترفع الناس الى مكان الخالدين . ثم اسقطت رباط جوربها وقد التقطه زديج فى ادبه المالوف ولكنه لم يرده الى موضعه من ساق السيدة ، وكانت هذه الغلطة — ان صح ان تكون غلطة — مصدرا لخطوب منكرة شداد . لم يفكر زديج فى هذه الغلطة ، ولكن امراة الحسود أطالت فيها التفكير .

وجعلت سيدات اخر يزرنه فى كل يوم . وقد سجل التاريخ السرى لمدينة بابل انه هفا هفوة واحدة ، ولكنه دهش اشد الدهش لانه لم يجد فى هذه الهفوة لذة ، ولانه كان يقبل خليلته لاهيا عنها . وكانت المراة التى ميزها بهفوته هذه وهو لا يكاد يلتفت اليها وصيفة من وصائف الملكة استارتيه . وكانت هذه البابلية الرقيقة تقول لنفسها ملتمسة العزاء : « يجب ان يكون هذا الرجل كثير الهموم الى حد انه يفكر فى همومه اثناء الحب » وقد افلتت من زديج فى الساعة التى لا يقول الناس فيها شيئا أو لا يقولون فيها الا الفاظا ماثورة كلمة نطق بها عن غير وعى ، وهى : « الملكة » فظنت البابلية انه قد ثاب الى نفسه اخر الامر ، وانه يدعوها ملكته . ولكن زديج مضى فى ذهوله حتى نطق باسم الملكة استارتيه . وخيل الى السيدة فى هذه اللحظة السعيدة انه كان يقول لها انها أجمل من الملكة استارتيه . وقد

خرجت من قصر زديـج ومعها طرف كثيرة. فما هي الا أن تزور زوج الحسود وكانت لها صديقا حميما ، فتقص عليهـا مغامرتها تلك . وتغار هذه لأن زديج آثر عليها صاحبتها . قالت : « انه لم يتنزل حتى الى ان يضع لى رباط الجورب هذا فى موضعه ، ولقد كرهت هذا الرباط منـذ ذلك اليوم . » قالت السـيدة السعيدة للسـيدة الحسـود :« انك لتتخذين لجواربك نفس الرباط الذى تتخـذه الملـكة . لعلكمـا تشتريانه من صـانعة واحدة.» ففكرت زوج الحسود طويلا ولم تقل شيئا ، ثم اظهرت زوجها الحسود على القصة كلها.

وكـان زديـج فى أثنـاء ذلك يلاحظ ان شـيئا من الـذهول يصيبه حين يقضى وحين يستقبل . ولم يكن يعـرف كيف يعلل هذا الذهول .

وقد راى فيما يرى النائم كأنه كان مستلقيا على عشب جاف فيه شوكات تؤذيه . ثم كأنه بعـد ذلك قد كان نائما على سرير من الورد ، فخرج منـه ثعبان لدغ موضع القلب منه بلسانه الدقيق الحاد المسـموم . وكان يقول لنفسـه : « واحسرتاه ! لقد نمت طويلا على العشب الشائك ، ثم هأنذا الآن انام على سرير مـن الورد ، فما عسى أن يكون هذا الثعبان ؟ »

الفصل الثامن

الغيرة

وقد جاء شقاء زديج من سعادته نفسها ومن كفايته بنوع خاص . فقد كان يخلو فى كل يوم الى الملك فيتحدث اليه والى زوجته الجليلة استارتيه . وكان سحر حديثه يزداد لحرصه على ان يثير الاعجاب . ومكان هذا الحرص من النفوس مكان الزينة من الاجسام . وقد اثر شبابه وظرفه فى نفس استارتيه تأثيرا لم تفطن له أول الأمر ، فجعل حبها ينمو فى ظل البراءة . وكانت استارتيه تستمتع غير متحفظة بالنظر والاستماع الى فتى عزيز على زوجها الملك واثير عند الدولة كلها . ولم تكن تكف عن الثناء عليه عند الملك والتحدث عنه الى وصائفها اللاتى كن يضفن اطراء الى ظراء . وكان كل شىء يعين على ان ينفذ فى قلبها ذلك السهم الذى لم تكن تشعر به . وكانت تهدى الى زديج من الهدايا ما يدل على الميل اكثر مما كانت تقدر ، وكانت تظن انها انما تتحدث اليه كما تتحدث الملكة الى وزير قد رضيت عن عمله ، على حين انها انما كانت تتحدث اليه حديث امراة رقيقة مرهفة الحس .

وكانت استارتيه اروع جمالا وابرع حسنا من سمير ، تلك التى كانت تكره العور ، ومن تلك المرأة التى كادت تجدع انف زوجها . وما هى الا ان يثير تبسط استارتيه مع زديج ، وحديثها الرقيق الذى اخذ يسبغ على وجهها شيئا من حمرة ، ولحظها الذى كانت تريد ان تحوله ولكنه كان يستقر على لحظه هو فيذكى

فى قلبه نارا دهش لها دهشـــا شديدا . وقد قاوم ، واستعان بالفلسفة التى كانت تعينه كلما التمس عندها العـون ، ولكنها فى هذه المرة لم تمدده الا بنـورالمعرفة دون ان تخفف من وجده شيئا. وكان الواجب وعرفان الجميل وجلال الملك :كل اولئك يتمثل له كانه آلهة الانتقام . كان يقاوم وكان ينتصر . ولكن هذا الانتصار الذى كان يجب ان يظفر به كل ساعة كان يكلفه كثيرا من الأنين والدموع . وقد اصبح لايجرؤ على ان يتحدث الى الملكة فى تلك الحـرية الحـــلوة التى كانـــت تسحرهما جميعـا . وكان اذا لقى الملكة غشيت عينيه سحابة وتقطع حديثه واختلط ، فـكان يغض بصره ، فاذا تحول لحظـه على رغمه نحو الملكة رأى عينيها يظللهما الدمع وتنطلق منهما فى الوقت نفســه ســهام من نار ، وكلمـا كان كل منهمـا يقـول لصاحبه : « ان الحب يشغفنـا ولـكننا نخاف الحب ، وان نارا واحـدة تحرقنا ولـكننا نبغض هذه النار . »

وكان زديج يخرج من عندها هائما واجما قد اثقل قلبه لاقبل له باحتماله . وقد تجاوز الهيام به حده ، فاظهر صديقه كادور على مكنون سره ، وكـان يشبه فى ذلك رجلا شق عليـه الالم حتى اضناه فانتزع منـه صيحة شاكية واسال على جبهته عرقا باردا ، فظهر من امره ماكان مستورا .

قال كادور : « لقد تبينت هذا الشـعور الذى كنـت تريد ان تخفيه حتى على نفســك ، فان للعواطف الجامحة آيات ليس الى الشك فيها سبيل . فقدر ايها الصديق العزيز وقد اسـتطعت انا ان اقرا فى قلبك ، كيف تكون حال الملك لو قرا فى هذا القلب بعض ما يهينه! فليس للملك عيب الا انه اشد الناس غيرة . انك تقاوم حبك فى قوة اشـد ممـا تبذل الملكة لمقاومة حبها. ومصدر ذلك انك فيلسوف ، وانك انت زديج . أما اسـتارتيه فامراة ، وهى تبيح للحظها ان يتكلم فى غير تحفظ ؛ لانها ما زالت تعتقد

انها غير آثمة . وهى الأسف قد اطمأنت الى براءتها ، فيدعوها ذلك الى الاهمال فى التحفظ والاحتياط بالقياس الى اشياء خارجية لا ينبغى ان تهمل ، وسأظل مشفقا عليها مالم تقترف شيئا تلوم نفسها فيه . ولو قد اتفقت مالهان عليكما خداع الرقباء. فالحب الناشىء المكبوت لابد من ان يفتضح ، اما الحب الذى ظفر بالرضا فهو قادر على ان يستخفى . » وقد اضطرب زديج لهذه الفكرة التى تغريه بخيانة الملك وهو الذى احسن اليه ، ولم يبلغ من الوفاء للملكه قط مثل مابلغ حين تبين انه قد تورط فى هذه الخطيئة عن غير ارادة منه. ومع ذلك فقد كانت الملكة تكثر من ذكر زديج ، وكانت الحمرة تغشى وجهها كلما ذكرته ، وكانت حين تتحدث اليه بمحضر الملك تتحمس حينا وتنقطع حينا ، وكانت تغرق فى التفكير العميق اذا خرج ، حتى اثار هذا كله شيئا من الاضطراب فى نفس الملك ، فصدق كل مارأى وتخيل كل مالم ير ، ولاحظ بنوع خاص ان حذاء امراته كان ازرق ، وان حذاء زديج كان ازرق ، وان شرانط الملكة كانت صفراء ، وان قلنسوة زديج كانت صفراء. وكانت هذه الأشياء كلها آيات خطيرة بالقياس الى ملك مترف. وما هى الا ان يتحول الشك الى يقين فى نفسه الساخطة .

وخدام الملوك والملكات جميعا جواسيس على قلوبهم . فما اسرع ماتبين هؤلاء الخدم ان استارتيه عاشقة ، وان مؤبدار غيران . واغرى الحسود امراته بان ترسل الى الملك رباط جوربها الذى يشبه رباط جورب الملكة . وكان هذا الرباط ، لشقاء زديج ، ازرق ، فلم يفكر الملك بعد ذلك الا فى الانتقام . وازمع فى ذات ليلة ان يميت الملكة مسمومة ، وان يميت زديج مشنوقا . اذا اسفر الصبح . ثم صدر الامر بذلك الى خصى قاس من خصيانة موكل بانتقامه . وكان فى غرفة الملك حين اصدر هذا الامر قزيم

اخرس ولكنه سميع ، وكان يخالط الملك ولا يخفى عليه من امر القصر شيء كانه بعض الحيوان المستأنس . وكان هذا الأخرس القزم وفيا للملكة ولزديج . فلما سمع الامر بموتهما احس دهشا لايعدله الا ما احس من هول . ولكن كيف السبيل الى اتقاء هذا الامر الفظيع الذى يوشك ان ينفذ فى ساعات قلائل ؟ لم يكن القزم يحسن الكتابة ، ولكنه كان يحسن التصوير ويجيد المقاربة بين الصورة والأصل . فاتفق شطرا من الليل فى رسم ما كان يريد ان يؤدى الى الملكة من المعنى . وكان رسمه يصور الملك مغيظا محنقا مصدرا امره الى الخصى ، ومائدة غير بعيدة قد القى عليها حبل ازرق ورباط جورب ازرق وشريط اصفر وقام عليها اناء . والملكة فى وسط اللوحة تحتضر بين اذرع وصائفها ، وزديج مخنوق تحت قدميها . وكان الأفق يصور طلوع الشمس ، ليدل بذلك على أن هذا الأمر المنكر سينفذ اذا اسفر الصبح . فلما اتم صورته اسرع الى وصيفة من وصائف الملكة وافهمها ان هذه الصورة يجب ان تصل اليها من الفور .

وفى اثناء الليل طرق باب زديج ثم اوقظ ودفعت اليه رسالة من الملكة . فيشك فى انه حالم او عالم ، ثم يفض الرسالة بيد مرتعشة . فأى دهش واى حزن اصابه حين قرأ هذه الكلمات :

« النجاء فى هذه اللحظة والا فقدت حياتك ! النجاء يازديج انى آمرك بذلك واستحلفك بحبنا وبشرائط الصفر . لم اكن آثمة ولكنى اشعر بانى سأموت مجرمة . »

ولم يكد زديج يجد القوة على الكلام ، فأمر بدعاء كادور . ولم يقل له شيئا ، وانما دفع اليه الرسالة . فاكرهه كادور على الطاعة ، على ان يأخذ من فوره الطريق الى ممفيس . قال له : « ان حاولت لقاء الملكة عجلت موتها ، فاذا تحدثت الى الملك عجلت موتها كذلك . فعلى ان ادبر امرها ، فدبر انت امرك .

اسرع الى وصيفة من وصيفات الملكة وافهمها ان هذه الصـــورة يجب ان تصل اليها من الفـــور

obeikandl.com

وسأذيع انك سلكت طريقك الى الهند . وسألحق بك بعد قليل وانبئك بما يكون قد حدث فى بابل من الخطوب . »

وفى الوقت نفسه أمر كادور باعداد نجيبين خفيفين سريعين امام باب خفى من ابواب القصر، وحمل على أحدهما زديج حملا، فلم يكن يستطيع أن يسعى ، وانما كان يوشك أن يموت حزنا، وصحبه خادم واحد . وما هى الا ساعة حتى كان كادور غارقا فى حزن عميق وقد غاب صديقه من بصره .

ومضى هذا الهارب العظيم ، حتى اذا بلغ تلا مشرفا على بابل التفت الى قصر الملكة ثم اغمى عليه ، ولم يفق من اغمائه الا ليسفح الدمع ويتمنى الموت . فلما قضى حق الملكة التى هى احب النساء الى القلوب وابعد الملكات صوتا فى الافاق ، وفكر فيما قضى عليها من شقاء ، عاد الى نفسه وفكر فى امره ، ثم صاح قائلا : « ماحياة الناس اذن ؟ اينها الفضيلة بماذا نفعتنى ؟ لقد خانتنى امرأتان وهذه الثالثة لم تقترف اثما وقد قضى عليها الموت . كل ما فى من خير كان مصدر شقاء لى . ولم ارتفع الى ارقى المراتب الا لأهوى الى الدرك الأسفل من الشقاء . ولو قد كنت شريرا ككثير من الناس لظفرت بما يظفرون به من السعادة . » ومضى فى طريقه الى مصر تثقله هذه الخواطر المهلكة ، ويغشى عينيه سحاب الألم ، وتعلو وجهه صفرة الموت ، وقد هوت نفسه من اعماق اليأس الى قرار سحيق

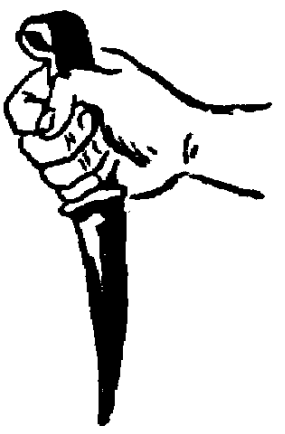

الفصل التاسع

المرأة المضروبة

مضى زديج يهتدى بالنجم فى طريقه ، وكانت الجوزاء والشعرى تقودانه نحو كانوب ، وهو يعجب بهذه الكرات الضخمه من الضوء التى لاتظهر لأعيننا الا كمستصغر الشرر ، على حين تظهر الأرض لطامعنا شيئا عظيما جليل الخطر ، مع انها ليست فى حقيقة الامر الا نقطة ضئيله فى الكون . وكان يرى الناس كما هم فى الواقع جماعات من الحشرات يأكل بعضها بعضا على ذرة ضئيلة من الطين . وهذه الصورة الصادقة كانت تلغى شقاء الغاء، لانها تضائل من شخصه ومن مدينه بابل نفسها . وكانت نفسه تتجرد من شخصيته وتثب نحو آفاق اللانهاية ، وتلاحظ هذا النظام المستقر الذى يمضى عليه الكون . ولكنه حين كان يثوب الى نفسه ويتعمق دخيلة قلبه لم يكن يستطيع الا ان يفكر فى ان استارتيه قد تعرضت لأعظم الخطر ، ولعلها قد لقيت الموت . هنالك كان العالم كله يستخفى ، ولم يكن هو يرى الا استارتيه تحتضر وزديج يتجرع كأس الشقاء !

وبينما كان يتردد بين هذا المد والجزر من فلسفه رفيعة الى ألم ممض جعل يتقدم نحو حدود مصر . وكان خادمه الأمين قد

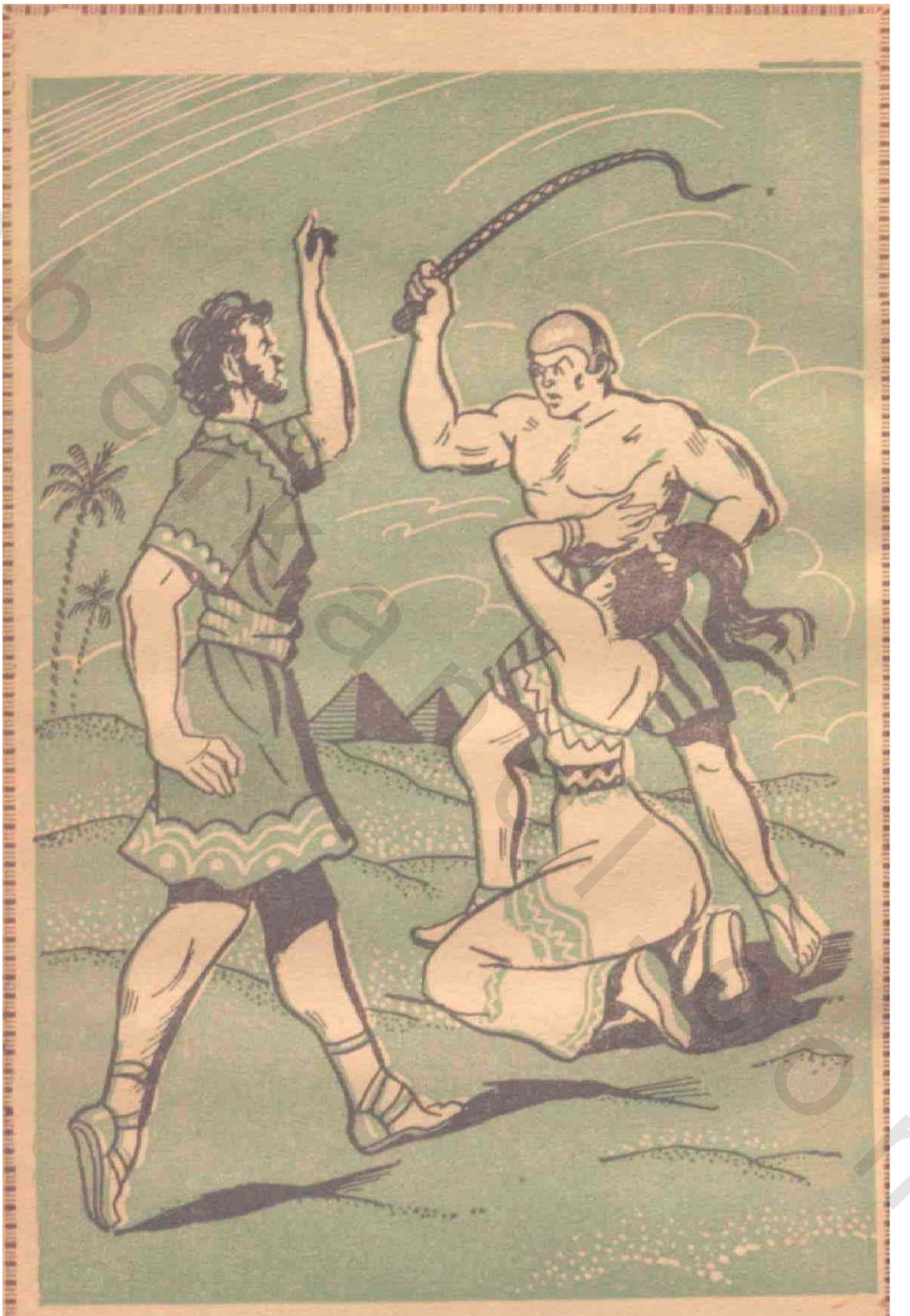

أتوسل اليك أن تحترم الجمال وترفق بالضعف

obeikandl.com

سبقه الى احدى الضواحى ليلتمس له منزلا . وجعل زديج يتنزه فى الحدائق التى تحيط بهذه الضاحية ، فرأى غير بعيد من الطريق العامة امرأة مولهة تستغيث بالارض والسماء ، ورجلا يتبعها وقد أخرجه الغضب عن طوره . وقد لحقها الرجل وهى تستعطفه لاثمة ركبتيه ، والرجل يشبعها شتما وضربا . فقدر زديج لمنظر هذين المصريين ان الرجل كان غيورا وان المرأة كانت خائنة . ولكنه حين نظر الى هذه المرأة ورآها ذات جمال مؤثر وفيها ملامح من استارتيه رق لها وسخط على الرجل . أما هى فأعولت والعبرات تخنقها قائلة لزديج : « اعنى انقذنى من هذا الرجل الذى ليس له نظير فى الغلظة والجفاء . انقذ حياتى . »

هنالك أسرع زديج فألقى بنفسه بينهما ليرد عنها عنف هذا الرجل . وكان له شىء من العلم بلغة المصريين ، فقال له فى هذه اللغة : « ان كان لك حظ من رحمة فانى أتوسل اليك أن تحترم الجمال وترفق بالضعف . أتستطيع أن تهين الى هذا الحد آية من آيات الطبيعة قد جئت أمامك وليس لها عاصم منك الا الدموع ؟ » قال الرجل العنيف : « فأنت تحبها ايضا ! ومن حقى ان انتقم منك . » ثم ارسل شعر المرأة الذى كان يجذبه وصوب الى الغريب رمحه يريد أن يشق به صدره . وكان زديج محتفظا بهدوئه ، فاستطاع أن ينحرف عن الطعنة فى يسر . وأخذ يسنان الرمح يجذبه اليه ، والمصرى يريد أن يحتفظ به ، فيتحطم الرمح بين الرجلين . ويسل المصرى سيفه فيسل زديج سيفه ، ويسعى كلاهما الى صاحبه . فاما المصرى

فيرسل ضرباته فى غير نظام ، وأما خصمه فيتقيها فى مهارة . والمراة جالسة على العشب تصفف شعرها وتنظر اليهما . وكان المصرى اقوى من خصمه ، وكان زديج أمهر من المصرى : أحدهما يقاتل ورأسه يدير ذراعه ، والآخر يقاتل وقد ملك الغضب عليه أمره كله . ثم يهجم عليه زديج فيجرده من سلاحه . ولكن المصرى يبلغ من الغضب أقصاه فيهجم على زديج الذى يأخذه فيضغطه فيلقيه على الأرض فيضع ذباب السيف على صدره ويعرض عليه الحياة . هنالك يفقد المصرى صوابه ، فيستل خنجره ويجرح به زديج فى نفس الوقت الذى كان يهدى اليه العفو فيه . وقد ثارت حفيظة زديج فأغمد سيفه فى صدر خصمه . ويدفع المصرى صيحة هائلة ثم يلفظ الروح .

ثم يتقدم زديج فى خضوع الى هذه المراة قائلا لها فى صوت هادىء : « لقد اكرهنى على أن اقتله . فانت الآن صرت طليقة قد أمنت شر هذا الرجل الذى لم ار مشبها له فى العنف . فماذا تريدين منى الآن يا سيدتى ؟ » قالت المراة : « أريد ان تموت ايها المجرم . اريد ان تموت ! لقد قتلت حبيبى ! وددت لو امزق قلبك تمزيقا . » قال زديج : « ان لك فى الحق ازاجا غريبا يا سيدتى ! لقد كان يضربك ضربا مبرحا ، ولقد كاد يسلبنى حياتى لأنك طلبت الى النجدة فاستجبت لك . » قالت معولة : « وددت لو يضربنى الآن ضربا مبرحا ! لقد كنت اهلا لما كنت القى منه ، لقد دفعته الى الغيرة . وددت لو يضربنى الآن وانك ملقى مكانه . » قال زديج وقد أخذ منه الدهش والغضب مأخذا عظيما : « سيدتى انك لرائعة الحسن ، ولكنك أهل لأن أضربك

انا أيضا لانك شـــاذة الاخلاق ، ولـكنى ان أكـلف نفسى هـذا الجهد . » ثم جلس على جمله وسعى نحو الضاحية . ولكنه لا يكاد يمضى الا قليلا ثم يسمع نبأة ، فلتفت واذا سعاه اربعة من أهل بابل قد اقبلوا مسرعين . فيرى أحدهم هذه المراة ويصيح : « هذه هى انها لتشبه الصورة التى وصفت لنا . » ثم لا يلتفتون الى الميت وانما يحيطون بالسيدة فيخطفونها خطفا . وهى تصيح : « انقذنى مرة اخرى أيها الغريب! انى لنادمة على الاساءة اليك . انقذنى ، انى لأعتذر اليك بانى شكوت منك ! انقذنى وانالك الى ان اموت . » ولـكن زديج كان قد فقد الميل الى ان يقاتل فى سبيلها ، فاجابهـا : « اطلبى المعونة من غيرى فلن تخدعينى مرة اخرى . »

على انه كان جريحا وكان دمه ينزف وكان محتاجا الى بعض العنـاية ؛ وقد ملأه منظر هؤلاء البابليين الاربعة قلقا ، فهم رسل الملك مؤبدار . فيسرع نحـو القرية ، غير متخيل للسبب الذى من اجله يختطف البابليون هذه المرأة ، وغير فاهم لاخلاق هذه المرأة نفسها .

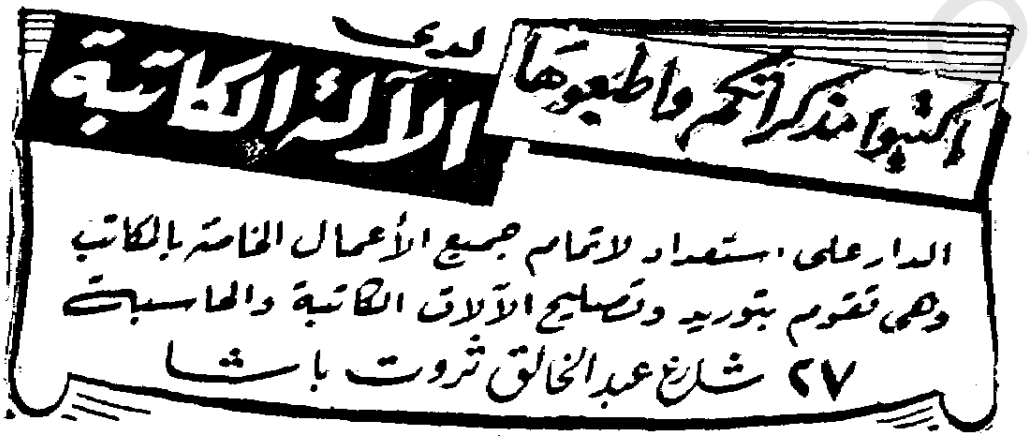

الفصل العاشر

الرق

ولا يكاد يدخل القرية المصرية حتى يرى الناس قد أحاطوا به ، وهم يتصايحون : « هذا هو الذى اختطف ميسوف الحسناء وقتل كليتوفيس » . قال زديج : « ايها السادة ليعصمنى الله الى آخر الدهر من ان اختطف حسناءكم ميسوف ، فانها جامحة مسرفة فى الجماح . اما كليتوفيس فانى لم اقتله عن عمد ، وانما دافعت عن نفسى حين اعتدى على . لقد كان اراد ان يقتلنى لانى طلبت اليه فى ارفق الرفق ان يكف اذاه عن ميسوف وكان يضربها ضربا مبرحا . وانما أنا رجل غريب قد اقبل لاجئا الى مصر . وليس مما يلائم العقل ان اسعى اليكم مستجيرا بكم ثم ابدا بخطف امرأة وقتل رجل . »

وكان المصريون فى ذلك الوقت اولى عدل ورحمة . فقد قاد الشعب زديج الى المركز ، وهناك ضمدت جراحه قبل كل شىء ، ثم حقق معه ومع خادمه كل على حدة لاستجلاء الحقيقة . فتبين ان زديج لم يتعمد القتل ولكنه قد اراق دم انسان ، وكان القانون يقضى عليه بالرق . فبيع جملاه لمصلحة القرية ، وفرق ماكان يحمل من ذهب على اهلها ، وعرض هو وخادمه للبيع فى سوق الرقيق . وقد تنافس فيهما المشترون وتمت الصفقة لتاجر عربى يسمى سيتوك . على أن ثمن الخادم قد كان ارقى من ثمن سيده ، لأن الخادم أقدر على العمل واجدر ان يحتمل من المشقة مالم يكن سيده يقدر على احتماله . ولم ينظر الى مابين

السيد وخادمه من تفاوت فى العقل والمنزلة ، فاصبح زديج اذن عبدا خاضعا لخادمه ، وقد قرن كلاهما الى صاحبه فى حبل واحد من رجليهما ثم دفعا الى بيت سيدهما الجديد . وكان زديج فى أثناء الطريق يعزى خادمه ويرغبه فى الصبر ، ولكنه كان على عادته يفكر فى حياة الانسان ومصيره . وكان يقول لخادمه : « ان الشقاء الذى كتب على يمتد اليك . فقد دارت الاشياء كلها بالقياس الى دورة غريبة الى الآن ، فقد قضى على بالغرامة لانى رأيت كلبة تمر ، واشرفت على الموت من اجل العنقاء ، وارسلت الى العذاب لانى صنعت شعرا اثنيت فيه على الملك ، وكدت اشنق لان شرائط الملكة كانت صفراء ، وهأنذا أدفع معك الى الرق لأن رجلا عنيفا ضرب خليلته . فلنحتفظ بشجاعتنا ، فقد يكون لالمنا حد يقف عنده ، ولا بد لهذا التاجر العربى من أن يملك الرقيق . ولم لا اكون انا رقيقا كغيرى من الرقيق ، مادمت رجلا كغيرى من الرجال ؟ ولن يكون هذا التاجر قاسيا ، فقد ينبغى ان يرفق بعبيده ان كان يريد ان ينال منهم خيرا . » كذلك كان يقول لخادمه على حين كان قلبه مشغولا بمصير الملكة استارتيه .

وقد ارتحل سيتوك العربى بعد يومين مستصحبا خادميه وابله الى صحراء بلاد العرب ، وكانت قبيلته تسكن قريبا من صحراء اوريب . وكانت الطريق طويلة شاقة . وكان العربى اثناء السفر يؤثر الخادم على سيده ، لان الخادم كان يحسن وضع الاثقال على ظهور الابل ، فكان العربى يخصه بالعناية . وقد نفق احد الجمال على مسير يومين من اوريب ، فوزع حمله على الخدم وحمل زديج نصيبه . وكان سيتوك يضحك حين يرى عبيده جميعا يمشون وقد انحنوا لثقل ماكانوا يحملون . وقد استباح زديج لنفسه ان يبين له سبب هذا الانحناء ، ففسر له قوانين التوازن . فدهش التاجر وجعل ينظر اليه نظرا

جديدا . ولما رأى زديج اهتمامه بما سمع استحث حبه للاستطلاع، فتحدث اليه فى اشياء كثيرة كانت تتصل بتجارته ، كالثقل النوعى للأشياء التى تختلف مادة وتستوى حجما ، وخصائص بعض الحيوان التى تنفع الناس، وطرائق الانتفاع بما لايظهر فيه نفع ، فتبين لسيتوك ان خادمه حكيم ، فآثره وقدمه على خادمه الذى كان يفضله عليه من قبل ، ثم احسن معاملته . ولم يندم فيما بعد على ماقدم اليه من معروف .

ولم يكد سيتوك يصل الى مضارب القبيلة حتى استقضى يهوديا خمسمائة مثقال من الفضة ، وهو دين كان اليهودى قد اقترضه منه امام شاهدين ،ولكن الشاهدين كانا قد فارقا الحياة ، فالتوى اليهودى بالدين حامدا لله ان اتاح له هذه النعمة التى مكنته من ان يجحد دين رجل من العرب. فافضى سيتوك بهمه هذا الى زديج الذى كان قد اصبح له مستشارا قال زديج : « فى اى مكان اقرضت مثاقيلك لهذا الكافر ؟ » قال التاجر : « على صخرة ضخمة قريبا من جبل اوريب . » قال زديج : « وما اخص مايمتاز به مدينك؟ » اجاب سيتوك : « يمتاز بالغدر. » قال زديج : « ولكنى اسألك انشيط هو ام كسل ، احذر هو ام اخرق . » قال سيتوك :« هو بين الذين يلتوون بالدين اعظمهم حظا من النشاط . » قال زديج : « اتأذن ان اكون محاميك امام القضاة ؟ » ثم دعا اليهودى امام المحكمة وتحدث الى القضاة على هذا النحو :« ياوسائد العرش الذى يستقر عليه العدل انى اطلب الى هذا الرجل نيابة عن سيدى خمسمائة مثقال من الفضة قد التوى بها وابى ان يؤديها . » قال القاضى : « أعندك بينة ؟ » قال زديج : « لا ! لقدمات الشاهدان ، ولكن هناك صخرة عريضة عدت عليها المثاقيل ، فاذا اذنت المحكمة بحمل هذه الصخرة فقد ارجو

ان تشهد لى وسنبقى نحن هناحتى تحمل الصخرة . وسأرسل من يحملها على نفقة سيدى سيتوك . » قال القاضى : « لابأس . » وجعل ينظر فى قضايا اخرى . فلما كان آخر الجلسة قال لزديج: «الم تأت صخرتكم بعد ؟ » فتضاحك اليهودى قائلا : « تستطيع عظمتكم أن تبقى فى الجلسة الى غد دون ان تحضر الصخرة ، فهى تقوم على بعد ستة اميال ، ولا يستطيع ان يحولها عن مكانها اقل من خمسة عشر رجلا . » فصاح زديج : « الم اقل لكم ان الصخرة ستشهد لى ؟ فما دام هذا الرجل يعرف مكانها فهو يقر بان المثاقيل قد عدت عليها» فبهت اليهودى واضطر آخر الأمر الى الاعتراف ، وأمر القاضى بأن يشد هذا الرجل الى الصخرة ولا يقدم اليه طعام ولا شراب حتى يؤدى الدين .

ومنذ ذلك الوقت اصبح العبد زديج والصخرة موضع ثقة وثناء فى بلاد العرب .

الفصل الحادى عشر

الخريف

وبلغ الرضا من سيتوك ان جعل من عبده لنفسه خليلاً ، واصبح لايستطيع ان يستغنى عنه كما كان ذلك شان الملك فى بابل . وكان زديج سعيدا لان سيده لم يتخذ لنفسه زوجا . وكان يتبين فى سيده طبعا ميالا الى الخير وكثيرا من الاستقامة فى السيرة والاصابة فى التقدير . وساءه أن سيده كان يعبد جيش السماء اى الشمس والقمر والنجوم . كما جرت بذلك عادة العرب . وكان يتحدث اليه فى ذلك متحفظا اشد التحفظ . ثم قال له آخر الامر : « ان هذه الكواكب والنجوم ليست الا اجساما كغيرها من الاجسام ، وليست أحق بالتعظيم من شجرة او صخرة . » قال سيتوك : « انها كائنات خالدة تحقق لنا منافعنا كلها . فهى تشيع الحياة فى الطبيعة وتدبر فصول العام ، وهى بعد ذلك بعيدة عنا بحيث لانستطيع الا تقديسها . » قال زديج : « ان البحر الاحمر يحقق لك من المنافع أكثر مما تحقق لك هذه الكواكب حين يحمل تجارتك الى الهند . وما يمنعه أن يكون قديم العهد كالنجوم ؟ واذا لم يكن بد من ان تعبد ما بعد عنك فقد يجب ان تعبد أرض جنجار يدا التى هى فى أقصى العالم . » قال سيتوك : « كلا ! ان النجوم مشرقة اشراقا يفرض على عبادتها . » فلما جن الليل اشعل زديج عددا ضخما من المصابيح فى الخيمة التى كان يجب ان يجلس فيها الى العشاء مع سيتوك . فلما اقبل مولاه جثا أمام هذه المصابيح قائلا :

« ايها الضوء المشرق الخالد وفقني دائما لما أريد . » ثم جلس الى المائدة دون أن ينظر الى سيتوك . قال سيتوك دهشا : « ماخطبك ؟ » قال زديج : « انما أصنع صنيعك ، فأعبد هذه المصابيح وأهمل سيدها وسيدى . » هنالك فهم سيتوك فحوى هذه الاشارة ، ونفذت حكمة عبده الى نفسه ، فاعرض عن عبادة المخلوقات وعبد الخالق الخالد الذى فطرها .

وكانت تتحكم فى بلاد العرب لتلك الايام عادة منكرة نقلت اليها من بلاد السيتيين بعد أن استقرت فى الهند بفضل البراهمة وكادت تعم الارض كلها . وكانت هذه العادة تقضى اذا مات رجل وارادت امرأته أن تكون قديسة ان تحرق نفسها على جسم زوجها بمشهد من الناس . وكان ذلك يجرى فى حفل عظيم يسمى حريق الترمل . وكانت القبيلة التى تعد كثيرا من النساء المحرقات تمتاز بحسن الذكر وبعد الصوت . وقد مات عربى من قبيلة سيتوك ، فقررت زوجته المونا وكانت صالحة ، أن تتبعه ، وأعلنت اليوم والساعة اللذين اختارتهما لتلقى نفسها فى النار على قرع الطبول ودعاء المزامير . وقد اظهر زديج لسيتوك أن هذه العادة البشعة مسيئة اشد الاساءة الى النوع الانسانى ، فهؤلاء النساء اللاتى يتركن نهبا للحريق فى كل يوم خليقات أن يمنحن الدولة عددا ضخما من المواطنين ، وأن يربين أطفالهن على أقل تقدير . وما زال به حتى اقنعه بأن من الخير الغاء هذه العادة ان كان ذلك ممكنا . قال سيتوك : « لقد مضى أكثر من خمسمائة والف عام والنساء يحرقن ، فأينا يجرؤ على أن يغير قانونا قدسه الزمن ؟ هل يوجد شىء أجدر بالاحترام من ظلم بعد به العهد ؟ » قال زديج : « ان العقل أقدم من هذه العادة . فتحدث أنت الى شيوخ القبيلة ، وسأذهب أنا الى هذه الارملة الشابة . »

فتلطف حتى قدم اليها . ثم جعل يتملقها بالثناء على جمالها ، ثم بين لها أن مما يحزن ويسوء أن يحرق سحرها العظيم للنار ،

لم اثنى على ثباتها وشجاعتها . ثم قال لها: « اكنت تحبين زوجك اذن حباجما ؟ » قالت : « انا . . كلا لم احبه قط ! لقد كان عنيفا غيورا لا سبيل الى احتماله : ولكني على ذلك مصرة على ان احرق نفسي في قبره . » قال زديج : « يجب ان تكون هناك للة لانظير لها في ان يحرق الانسان نفسه حيا . » قالت السيدة : « هذا شيء ترتعد له الفرائص ، ولكن لابد مما ليس منه بد . اني تقية . وما احب ان اشتهر بالسوء ولا ان اتعرض للسخرية لاجتناب هذه العار . » فقال لها زديج انهـا انما تحرق نفسها ارضاء لغيرها ، وان الغرور هو الذي يدفعها الى ذلك . ثم مازال يرفق بها حتى حبب اليها الحياة شيئا ما . بل استطاع ان يعطفها قليلا على هذا الذي كان يتحدث اليها . ثم قال لها : « ماسي ان تعتنى لو برئت من هذا الغرور الذي يدفعك الى النار ؟ » قالت السيدة : « واحسرتاه لو برئت من هذا الغرور لطلبت اليك ان تتحدى لنفسك زوجا . »

ولكن زديج كان مشغولا بحب استارتبه ، فلم ير بدا من ان يروغ عن هذا الدعاء . ثم سعى الى شيوخ القبيلة ، وطلب اليهم ان يصدروا قانونا يحظر على كل ارملة ان تحرق نفسها دون ان تخلو سنانه كله او فيه من القتيان . وعند ذلك الوقت لم تحرق عربه نفسها . ودانت بلاد العرب لزديج بهذه المكرمة التي الفى بها في يوم واحد عادة مضت عليها القرون . واصبح زديج محسنا الى بلاد العرب كلها .

الفصل الثاني عشر

العشاء

وقد اصبح سيتوك حريصا على الا يفارق زديج هذا الذي استقرت الحكمة في قلبه ، فاستصحبه الى سوق البصرة حيث كان يلتقي اكبر التجار في جميع أقطار الارض التي يسكنها الناس . وكان لقاء عدد ضخم من الناس على اختلافهم في الوطن والمنزلة والطبقة مصدر عزاء لزديج عن بعض همه . وقد خيل اليه ان العالم انما هو اسرة كبيرة قد اجتمعت في البصرة . فلما كان اليوم الثاني من اقامته في البصرة جلس الى مائدة العشاء مع جماعة فيهم المصري والهندي من جنجاريد ، والنازح من ارض كتاي واليوناني ، والكلتي ، وآخرون من الغرباء ، وكل هؤلاء الناس قد تعودوا الرحلة الى شط العرب حتى تعلموا شيئا من العربية كانوا يديرون به الحديث فيما بينهم . وكان المصري يظهر شديد الغضب ، وكان يقول : « ما اقبح البصرة من بلد ! ان اهلها يابون ان يقرضوني الف مثقال من ذهب على ان يرتهنوا بها اقوم عين في الدنيا . » قال سيتوك : « وكيف كان ذلك ؟ وما هذه العين التي لم يرتهنوها بهذا المال ؟ » قال المصري : « جثة عمتي ، وكانت ارضى نساء مصر خلقا ، وكانت ترافقني دائما فماتت في بعض الطريق ، وقد اتخذت منها احسن ما عرفت مصر من المومياء . ولو رهنتها في وطني لأخذت عليها كل ما طلبت من مال . وانه لغريب ان يضن

على بذلف مثقال مع انى اقدم فى سبيلها هذا الرهن القيم الخطير . »
وكان فى اثناء غضبه يتهيأ لاكل دجاجة سليق . فأخذ الهندى
بيده وصاح متألما : « ماذا تريدان تصنع ؟ » قال صاحب
المومياء : « اريد ان آكل من هذه الدجاجة . » قال الهندى :
« اياك ان تفعل ! فقد يجوز ان يكون روح عمتك قد تقمص هذه
الدجاجة ، وما اراك تحب ان تأكل عمتك . وان فى طبخ الدجاج
لاهانة بالغة للطبيعة . » قال المصرى الغضوب : « ماذا تريد
ان تقول حين تحدثنا عن طبيعتك ودجاجك ؟ انا نعبد الثور ونأكل
منه مع ذلك . » قال ساكن شاطىء الجانج : « ايمكن ان
تعبدوا ثورا ؟ » قال المصرى : « لاغرابة فى ذلك ، فنحن نعيش
على عبادة الثور منذ خمسة وثلاثين ومئة الف من السنين ،
لم ينكر ذلك احد منا . » قال الهندى : « خمسة وثلاثون ومئة
الف ! هذا غلو فى الحساب . فلم تسكن الهند الا منذ ثمانين
الف سنة ونحن مع ذلك اقدم منكم ، ليس فى ذلك شك . وقد
حرم علينا براهما ان نأكل من الثور قبل ان تضعود انتم على
المذابح لتعبدوه ، وفى النار لتأكلوه . » قال المصرى : « انك
لتضحكنى حين تذكر براهما التوازن بينه وبين آبيس . وماذا
تظن ان براهما قد صنع من غرائب المعجزات ؟ » قال
البراهمى : « هو الذى علم الناس من القراءة والكتابة ، وهو
الذى تدين له الارض كلها بلعبة الشطرنج . » قال كلدانى كان
يجاورهما : « لقد اخطأت ! انما يونس الحوت هو الذى اسدى
الى الناس هذه المكارم ، فينبغى ان يرد اليه حقه ويعرف له
فضله . والناس جميعا ينبئونك بانه كان كائنا الهيا له ذيل مذهب
ورأس انسان ، وانه كان يخرج من الماء ليعظ اهل الارض ثلاث
ساعات فى كل يوم . وقد ولدله بنون كثيرون وكلهم كان ملكا
كما يعرف الناس جميعا . وان عندى صورة له اعبدها كما ينبغى

لها أن تعبد . وللناس أن ياكلوا من لحم الثور ما احبوا ، ولكن ليس لهم ان يطبخوا السمك . ومع ذلك فانتما تنتميان الى اصل حديث العهد قليل الحظ من الشرف فما ينبغى لكما ان تجادلا . فالامة المصرية لاتعد الاخمسة وثلاثين ومئة الف عام ، والهند لاتفاخر الا بثمانين الف عام ؛ أما نحن فان تقاويمنا تسجل أربعة آلاف من القرون . فاسمعا لى واعرضا عن هذا الهذيان ، وانا زعيم ان اهدى الى كل واحد منكما صورة من صور يونس » .

قال ساكن كمبالو : « انى اكبر المصريين ، والكلدانيين ، واليونان ، والكلتيين ، وبراهما ؛ والثور آبيس ، والحوت العظيم يونس ، ولكن ربما كان « اللى » وهو نور الطبيعة او « القيان » وهو السماء والاله احق بالتكرمة من الثور والسمك . ولن اقول شيئا عن وطنى فهو اكبر من مصر وبلاد الكلديين والهند جميعا . ولن اجادل فى قدم العهد ، فحسب الانسان ان يكون سعيدا ، وليس اهون من ان يكون قديم الاصل . واذا لم يكن بد من ذكر التقاويم فانى اقول ان آسيا كلها تستعير تقاويمنا ، واننا احسنا وضع التقاويم قبل ان يتعلم الكلدانيون الحساب . »

هنالك صاح اليونانى : «انكم جميعا لجاهلون ! الا تعلمون ان الكاووس هو اصل كل شىء ، وان المادة والصور هما اللتان جعلتا العالم كما هو الآن ؟ » وقد تكلم هذا اليونانى فاطال الكلام . ولكن الكلتى الذى اسرف فى الشرب اثناء هذ الحوار ظن انه اعلم منهم جميعا ، وصاح قائلا ان ليس غير توته والبلوط شىء يستحق التكريم والاجلال ، وانه هو يحمل دائما من هذا الزهر فى جيبه ، وان اجداده السيتيين هم وحدهم اهل الخير فى الارض كلها ، وانهم فى الحق ربما اكلوا جسم الانسان ، ولكن ذلك لايمنع من ان من الحق على الناس ان يعرفوا لهم قدرهم ، وان من ذكر توته بسوء فسيعلمه كيف ينبغى ان يعيش .

وقداشتدت الخصومةحينئذ،ورأى سيتوك ان المائدة توشك ان يصبغها الدم . وكان زديج قد احتفظ بالصمت اثناء هذا الحوار كله ، فنهض اذ ذاك ثم تجه الى الكلتى لانه كان اشد القوم غضبا وقال له انهمصيب،وطلب اليه بعض زهره ، وحمد لليونانى بلاغته ، وهدأ النفوس الثائرة . ولم يقل لصاحب كناى الا قليلا لانه كان اعقل القوم جميعا . ثم قال لهم جميعا : « ايها الاصدقاء لقد كدتم تختصمون فى غير طائل لانكم جميعا متفقون . » هنالك تصايح القوم . قال للسيتى : « اليس من الحق انك لاتعبد الزهر والبلوط ، وانماتعبد صانعهما؟» قال الكلتى : « لاشك فى ذلك .» « وأنت ياسيدى المصرى انماتعبد فى بعض الشيرة من خلق لك الثور . » قال المصرى : «نعم .» « ويونس الحوت يجب ان يذعن لمن خلق البحر والسمك . « قال الكلدانى : « اوافق على ذلك .» قال : « والهندى والكاتى يعترفان من غير شك بالمبدأ الاول لكل شيء . ولم افهم هذا الكلام الرائع الذى تكلم به اليونانى ، ولكنى واثق بانه يسلم بوجود كائن عظيم هو الذى انشأ المادة والصورة . » قال اليونانى وقد احس الاعجاب به : ان زديج قد فهم عنه حق الفهم . قال زديج : « فانتم اذن على رأى واحد ، وليس هناك مايدعو الى الخصومة . » فاقبل القوم عليه يعانقونه . ثم باع سيتوك تجارته بيعا رابحا وعاد مع صديقه الى قبيلته ، ولكن زديج عرف عند وصوله ان قضيته قد نظرت اثناء غيبته . وان الحكم قد صدر عليه ان يحرق فى نار هادئة.

الدكتور

في خدمة الجميع

الفصل الثالث عشر

الموعد

وكان كهنة الكواكب قد أزمعوا أثناء رحلته الى البصرة ان يعاقبوه. فقد كانت جواهر الارامل اللاتى يرسلن الى النار وحليهن تؤول اليهم ، فلم يكن أقل من أن يحرقوا زديج عقابا له على ما جر عليهم من خسارة . فاتهموه اذن بسوء رأيه فى جيش السماء ورفعوا القضية ، واقسموا على أنهم قد سمعوه يقول ان نجوم السماء لاتغرب فى البحر . وقد ارتعد القضاة لهذا الكفر الشنيع ، وكادوا يمزقون ثيابهم حين سمعوا هذا المنكر من القول ، وقد كانوا أحرياء أن يفعلوا لو علموا أن لزديج من المال ما يعوض عليهم ثيابهم ، ولكنهم حين انتهى بهم الألم الى أقصاه اكتفوا بالحكم عليه أن يحرق فى نار هادئة. وقد جزع سيتوك وانفق ما كان يملك من جهد لينقذ صديقه ، ولكنه أكره على الصمت اكراها . هنالك أزمعت الارملة الشابة الهونا أن تنقذه ، وكانت قد أحبت الحياة بفضل زديج ، فأرادت أن تعصمه من النار التى بين لها ما فيها من الظلم . فدارت رأيها فى رأسها دون أن تتحدث به الى أحد ، وكان مقررا أن يحرق زديج من غده ، فلم يكن أمام الارملة الا الليل لانقاذه . والك الخطة التى دبرتها فى رحمة ورفق وحذر .

تعطرت وازينت حتى جعلت جمالها ساحرا فتانا ، ثم طلبت لقاء خاصا الى رئيس كهنة النجوم . فلما مثلت امام هذا الشيخ الجليل قالت له : « أيها الابن البكر للدب الاعظم يا اخا الثور ، وابن عم الكلب الاكبر ـ وكانت هذه القاب رئيس الكهنة ـ لقد اقبلت افضى اليك بذات نفسى . انى لمشفقة ان اكون قد وقعت فى خطيئة عظيمة حين لم احرق نفسى فى اثر زوجى العزيز وعلى ماذا اردت ان ابقى جسم هالك قد اخذت فيه السن ! » قالت ذلك وهى تخرج من كمها الحريرى الطويل ذراعها العارية ذات الصورة الرائعة والبياض الخلاب ، قالت : « انظر ما اهون هذا وما اقل خطره ! » ووجد زعيم الكهنة فى دخيلة نفسه ان هذا شىء عظيم الخطر ، قالت ذلك عيناه واكد ذلك فمه ، فقد اقسم انه لم ير قط فى حياته اجمل من هذه الذراع . قالت الارملة : « واحسرتاه ! لعل الذراع ان تكون خيرا من سائر الجسم ، ولكنك توافقنى على ان النحر لم يكن خليقا بعنايتى . » ثم اظهرت اجمل ثدى صنعته الطبيعة لو قرن اليه زر من الورد على تفاحة من العاج لاذى بها ، ولو قرنت اليه الحملان بعد غسلها لظهرت بالقياس اليه صفراء مشبعة بالسمرة . هذا النحر ، وهاتان العينان الكبيرتان الفاترتان المشرقتان بنار رفيقة ، وهذان الخدان اللذان يزدهيان بأجل الارجوان قد خالطه بياض اللبن النقى ، وانفها الذى لم يكن كبرج جبل لبنان ، وشفتاها اللتان كانتا كطرفى محارة من مرجان تضمر اجمل ما فى بحر العرب من اللآلى (١) ، كل هذا مجتمعا اشعر الشيخ بانه ابن عشرين ،

---

(١) تعريض فى هذا الوصف كله ببعض ما فى نشيد الاناشيد

فاعلن اليها حبه متلعثما . ولما راته المونا ملتهبا سالته العفو عن زديج ، قال : « واحسرتاه ! ايتهاالسيدة الحسناء لو اجبتك الى ما تطلبين لما اغنى عفوى عنه شيئا . فقد يجب أن يمضى العفو ثلاثةآخرون من الزملاء . » قالت المونا : « فامض أنت . »

قال الكاهن : « مع السرور بشرط أن يكون عطفك ثمنا لعفوى . » قالت المونا : « انك لتغلو فى تشريفى ، فتفضل بزيارتى اذا غربت الشمس واشرقت فى الافق النجمة شيت، فستجدنى على ايوان وردى اللون، وستصنع بخادمك ماتشاء . » ثم خرجت ومعها الامضاء ، وتركت الشيخ يصرعه الحب ويخيفه الشك فى قوته ، وانفق سائر اليوم فى حمامه ، واحتسى شرابا مزاجه من قرفة سيلان وبهارتيدوروترنات ، وانتظروقد كاد يفقد البصر أن تظهر النجمة شيت فى الافق .

وفى أثناء ذلك مضت المونا الحسناء فلقيت الكاهن الثانى ، فاكد لها أن الشمس والقمروكل مافى السماء من نجوم ليست الا نارامرهومة بالقياس الى سحرها . فطلبت اليه العفو نفسه ، وطلب اليها أن تؤدى ثمنه ، فاظهرت الأذعان وضربت موعدا للكاهن الثانى حين تشرق النجمة الجنيب . ثم مضت الى الكاهن الثالث والى الكاهن الرابع ، ظافرة دائما بالامضاء ، ضاربة موعدا من نجم الى نجم . ثم طلبت الى القضاة ان يلموا بدارها لامر ذى بال . فلما حضروا أظهرت لهم الاسماء الاربعة ، وانباتهم باى ثمن باع الكهنة عفوهم عن زديج . وأقبل كل واحد من الكهنة فى موعده ، ودهش كل واحد منهم حين رأى زملاءه وبنوع خاص حين رأى القضاة الذين تبينوا خزيهم واصحا . وكذلك نجا زديج ، أما سيتوك فقد فتنته مهارة المونا ، فاتخذها له زوجا .

اعلن اليها حبه متلهفا

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

الرقص

وكان على سيتوك ان يذهب بتجارته الى جزيرة سرنديب ، ولكن الشهر الاول لزواجه – وهو كما يعلم الناس جميعا شهر العسل – لم يسمح له بفراق مرأته ولا بتخيل انه يستطيع فراقها الى اخر الدهر ، فتقدم الى خليله زديج ان يقوم عنه بهذه الرحلة . وكان زديج يقول فى نفسه : «واحسرتاه ! ايجب ان أمعن فى السفر حتى أجعل بين استارتيه وبينى أبعد الآماد ! ولكن يجب ان اخدم من احسنوا الى . » قال ذلك ثم بكى ثم ارتحل .

ولم يمض عليه قليل من الوقت فى جزيرة سرنديب حتى نظر اليه على انه رجل متفوق ممتاز ، وقد اصبح حكما بين كبار التجار وصديقا للحكماء ومشيرا على هذه القلة من الناس الذين يحبون ان يستشيروا . وقد اراد الملك ان يراه ويسمع منه . فما اسرع ماعرف قيمته ووثق بحكمته واتخذه خليلا . وقد اضطرب زديج لما وجد عند الملك من الف ومودة ، فقد كان فى اثناء الليل والنهار مروعا بما جرت عليه عشرة مؤبدار من شقاء . وكان يقول لنفسه : « لقد اعجبت الملك ، افلا يمكن ان يسوقنى هذا الى التهلكة ؟ » ولم يكن من الممكن مع ذلك ان يتخلص من لطف الملك ، فيجب أن نعترف بأن نابوسان ملك سرنديب ، ابن نوسناب ابن نابسون ، ابن سنبوسنا كان من خيرة ملوك اسيا ، وكان عسيرا على من تحدث اليه الا يحبه .

وكان هذا الملك الكريم ممدحادائما ، مغشوشادائما ، مسروقا دائما ، وكان صاحب بيت المال فى سرنديب قدوة فى ذلك يتبعها الموظفون جميعا . وكان الملك يعلم ذلك ، وقد غير صاحب بيت ماله غير مرة ، ولكنه لم يستطع تغيير السنة المقررة التى تقتضى ان يقسم دخل الملك الى قسمين غير متساويين ، يبقى اصغرهما لجلالته ، ويؤول اكبرهما الى الموظفين .

وقد افضى الملك نابوسان بهمه هذا الى زديج . قال له ذات يوم : « انك تعرف اشياء كثيرة قيمة ، فهل تعرف الطريق الى ان اجد خازنا للمال لا يخون ؟ » قال زديج : « ليس فى ذلك شك ، انى اعرف السبيل الأمينة الى ان أجد لك خازنا نقى اليدين » . قال الملك مأخوذا وهو يقبله : « ماعسى ان تكون هذه السبيل ؟ » قال زديج : « انما هى ان تدعو المرشحين لهذا المنصب جميعا الى الرقص ، وايهم كان رقصه خفيفا نشيطا فائتمنه على بيت مالك » . قال الملك : « انك لتمزح ، وانها لطريقة رائعة يختار بها الأمين على بيت المال . ماذا ! أتزعم ان احسن الناس وثبا وعبثا بقدميه هو الخازن الامين النقى ؟ » قال زديج : « لا ازعم لك انه سيكون امهر الخزان ، ولكنى أؤكد انه سيكون اعظمهم حظا من الامانة . » وكان زديج يقول هذا فى ثقة وحزم ، حتى خيل الى الملك ان لديه سراخارقا يعرف به دخائل المديرين للأموال . قال زديج : « انى لا أحب الخوارق وقد ضقت دائما بأصحابها وبالكتب التى تخوض فيها . فاذا اذنت جلالتك لى فى تنظيم الامتحان الذى اقترحه فستعلم ان السر يسير لا عسر فيه ولا التواء . » وقد دهش نابوسان ملك سرنديب حين سمع ان هذا السر يسير سهل اكثر مما كان خليقا ان يدهش لو قيل له ان السر خارق ، لقوانين الطبيعة . قال لزديج : « هو ذاك ، فنظم الامتحان كما تشاء . » قال زديج : « دعنى أعمل وستربح من هذا الامتحان اكثر مما تقدر . » وفى اليوم نفسه

اعلن باسم الملك ان من يرشح نفسه لادارة بيت المال للملك نابوسان بن نوسناب فعليه ان يتخذ ثوبا من حرير رقيق ، وان يسعى الى قصر الملك فى اليوم الاول من شهر التمساح . وقد سعى المرشحون الى القصر وكان عددهم اربعة وستين رجلا ، وكانت قد أعدت فى الحجرة المجاورة جوقة موسيقية .

وقد أعد للرقص كل شيء ولكن باب الحجرة ظل مغلقا ، وكان من اراد الوصول الى الحجرة سلك اليها ممرا ضيقا مظلما بعض الشيء . واقبل حاجب فقاد المرشحين واحدا فى اثر واحد الى الحجرة من هذا الممر ، وجعل يترك كل واحد منهم فيه منفردا دقائق ، وكان الملك قد عرف سر زديج فعرض كنوزه كلها فى هذا الممر . فلما انتهى المرشحون جميعا الى الحجرة امر الملك بترقيصهم . ولم ير احد قط راقصين رقصوا فى غير ظرف ولا خفة كهؤلاء الناس الذين كانوا يرقصون وقد خفضوا رءوسهم وحنوا ظهورهم والقوا اذرعهم بجيوبهم ، وكان زديج يقول همسا : « ياالهم من خونة ! » وكان واحد منهم ليس غير ، يرقص رقصا خفيفا مرفوع الراس مطمئن الخطر مستقيم القد ممدود الذراعين ثابت الساقين . وكان زديج يقول : « يالله من رجل شريف ! ياله من رجل كريم ! » وقد قبل الملك هذا الراقص الجيد وجعله على خزائنه وعوقب الآخرون وفرضت عليهم الغرامات فى ادق العدل واقومه ، فقد كان كل واحد منهم اثناء اجتيازه للممر قد ملأ جيوبه حتى اثقله ماحمل ، فلم يكن يرقص الا فى جهد شديد . وقد حزن الملك على الطبيعة الانسانية ، اذ راى بين اربعة وستين راقصا ثلاثة وستين سارقا . وسمى الممر المظلم دهليز الأغراء . ولو وقع هذا الحادث فى فارس لسيق الثلاثة والستون رجلا الى العذاب ، ولو وقع هذا الحادث فى بلد آخر لحوكم هؤلاء الناس امام محكمة ينفق عليها ثلاثة امثال المال المسروق ، دون ان

تعيد الى خزانة الملك شيئا . وفى بعض البلاد الأخرى كان هؤلاء السارقون يستطيعون أن يدافعوا عن انفسهم أحسن الدفاع ، وان يصبوا غضب الملك على هذا الراقص الخفيف . اما فى سرنديب فلم يقض على هؤلاء الناس الا بأغناء بيت المال ، لان نابوسان كان رجلا حليما عفوا .

وكان كذلك عارفا للجميل ، فأهدى الى زديج مالا عظيما اعظم مما سرق اى سارق من خزانة الملك . وقد انتفع زديج بهذا المال ، فأرسل رسلا الى بابل ليعلموا له علم استارتيه . وقد اضطرب صوته حين أصدر امره الى الرسل وعاد دمه الى قلبه ، وغشيت عينيه سحابة من ظلمة ، وكادت نفسه تفارقه ، وقد ابحر الرسل ورآهم زديج يبحرون ، فعاد الى قصر الملك . ولما لم ير احدا ظن نفسه فى خلوة فنطق لسانه بلفظ الحب . قال الملك : « الحب ! انه هو الذى يشغلنى . لقد استطعت ان تعرف مصدر حزنى . انك لرجل عظيم ، وانى لأرجو ان تدلنى على الطريق التى اعرف بها امراة امينة شريفة كما دللتنى على الطريق التى اهتديت بها الى خازن امين . » وقد ثاب زديج الى نفسه ، ووعد الملك بان يعينه على الحب كما اعانه على تدبير المال ، وان كان امر الحب اشد عسرا .

الفصل الخامس عشر

العيون الزرق

قال الملك لزديج : « الجسم والقلب ... » فلم يستطع البابلى الا ان يقاطع الملك قائلا : « ما أشد شكرى لك لانك لم تقل العقل والقلب ! فانا لانسمع الا هاتين الكلمتين فى احاديث البابليين . وما اكثر ما نقرأ من الكتب التى تتحدث عن القلب والعقل ، وقد انشأها قوم لاحظ لهم من قلب او عقل . ولكن تفضل يامولاى فاتمم حديثك . » قال نابوسان : «ان جسمى وقلبى قد خلقا للحب، وقد رضى الأول ، ففى قصرى مئة امراة قد خصصت لخدمتى ، وكلهن حسان طائعات سابقات الى ما أريد ، بل محبات للذة اومتكلفات هذا الحب ابتغاء مرضاتى . ولكن قلبى بعيد اشد البعد عن السعادة . فقد تبينت اكثر مما ينبغى ان هؤلاء النساء يمتعن ملك سرنديب ، ولا يفكرن فى نابوسان . ولست اظن بنسائى خيانة او اثما ، ولكن اود لو اجد نفسا تخلص لى . ولو قد ظفرت بهذا الكنز لافتديته بهذه المئة من الحسان اللاتى يمتعننى بسحرهن ، فانظر هل تجد فى هذه المئة من السلطانات واحدة استطيع ان اثق بأنها تحبنى ؟ »

فأجابه زديج على نحو ما اجابه حين ذكر له الخزان : « مولاى ، دعنى أفعل ، والذن لى فى ان اتصرف فى الكنوز التى

عرضتها فى الممر ، وسأرفع اليك حسابها ولن تفقد منها شيئا » .
فترك له الملك الامر كله . وتخير هو من بين أهل سرنديب ثلاثة وثلاثين رجلا كلهم احدب ، وكلهم قد منى بقبح بشع ، وتخير كذلك ثلاثة وثلاثين من خدم القصر كلهم رائع الجمال . وثلاثة وثلاثين كاهنا كلهم فصيح وكلهم قوى ، وترك لهم جميعا الحرية فى ان يدخلوا على السلطانات فى مقاصيرهن ، واتيح لكل احدب اربعة آلاف دينار يغرى بها . فلم يمض اليوم الأول حتى كان الحدب جميعا سعداء . أما خدم القصر الذين لم يكن لديهم مايعطون الا انفسهم فلم ينتصروا الا بعد يومين أو ثلاثة ايام . اما الكهنة فقد وجدوا مشقة أشد ، ولكن ثلاثا وثلاثين من الصالحات اسمحن لهم آخر الأمر . وكان للملك نوافذ يشرف منها على هذه المقاصير ، فراى هذا الامتحان كله وبلغ منه العجب اقصاه . وقد راى تسعا وتسعين من نسائه يسقطن بمنظر منه . وبقيت واحدة شابة حديثة لم يدن منها الملك قط . فأرسل اليها احدب واحدبان وثلاثة عرضوا عليها اكثر من عشرين الف دينار . ولكنها ثبتت على الشرف ، وضحكت من هؤلاء الحدب الذين قدروا أن المال يبلغهم ما يشاءون . ثم قدم اليها خادمان هما أروع الخدم جمالا ، فقالت انها ترى الملك اجمل منهما . ثم اغرى بها افصح الكهنة ثم اقواهم : فوجدت اولهما ثرثارا ولم تلتفت الى ثانيهما . وكانت تقول : « ان القلب هو كل شيء ، ولن استسلم آخر الدهر لأحدب من اجل ماله ، ولا لشاب من اجل جماله ، ولا لكاهن من اجل فتنته ، انما احب نابوسان بن نوسناب ، وسأنتظر ان يتنزل فيحبنى . » هنالك غلب الفرح

لم يمض اليوم الاول حتى كان الحدب جميعا سعيدا

obeikandl.com

والدهش والحنان على الملك ، فأخذ كل ما قدم الحدب الى النساء من مال وقدمه هدية الى السلطانة الشابة ، وكانت تسمى فاليد . ثم اهدى اليها قلبه وكانت خليقة به ، ولم ير قط زهرة الشباب أشد اشراقا ولا سحر الجمال اشد فتنة للقلوب كما رآهما فيها . والدقة التاريخية لا تسمح بأن تخفي انها لم تكن تحسن التحية ، ولكنها كانت ترقص رقصا رائعا ، وتغني كبنات البحر ، وتتحدث كآلهة الجمال ، وكان حظها عظيما من الفضيلة والذكاء .

وقد احبت نابوسان ، وعبدها هو ، ولكن عينيها كانتا زرقاوين ، وكانت زرقة عينيها مصدر شقاء عظيم . وكان في بابل قانون قديم يحظر على الملك ان يحب امراة من هؤلاء النساء اللاتي سماهن اليونانيون فيما بعد ذوات عيون الها . وكان زعيم الكهنة قد شرع هذا القانون منذ خمسة آلاف سنة ، اراد بذلك أن يستأثر بخليلة الملك الأول بجزيرة سرنديب ، وجعل هذا القانون جزءا من دستور الدولة ، فما هي الا ان تسعى طبقات الدولة كلها الى الملك لترفع اليه احتجاجها . وجرى على الألسنة كلها ان ساعة المملكة قد اقتربت ، وان الشر قد بلغ اقصاه ، وان الطبيعة كلها معرضة لخطر عظيم ، لأن نابوسان بن نوسناب يحب عينين كبيرتين زرقاوين . وقد امتلأت المملكة بشكاة الحدب ورجال المال والكهنة والنساء السمر .

وانتهز الشعب المتوحش الذي يسكن شمال الجزيرة فرصة هذا السخط العام ، فاغار فجاة على مملكة نابوسان الخير ، وطلب الملك الى رعيته مالا ، فاكتفى الكهنة الذين يملكون نصف الدولة برفع ايديهم الى السماء ، وابوا ان يدخلوها في خزائنهم ليعينوا الملك ، واعلنوا صلوات موسيقية رائعة ، وتركوا الدولة نهبا للمغيرين المتوحشين .

قال نابوسان : « ايها العزيز زديج أمنقذى انت من هـذه الورطة ايضـا ؟ » قال زديج :« حبا وكرامة ، ستظفر من اموال الكهنة بكل ما تريد . فدع الأرض التى اقاموا عليها قصورهم ودافع عن أرضك وحدها . » وقد استحاب نابوسان الى زديج ، فما اسرع ما اقبل الكهنة اليه ضارعين يلتمسون معونته . وقد اجابهم الملك بصلاة موسيقية رائعة توسل فيها الى السماء ان تحمى أرضهم من العدوان . هناك قدم الكهنة اموالهم ، وانتهى الملك بالحرب الى غاية سعيدة . وكذلك جر زديج على نفسه بمشورته الحكيمة الموفقة وخدمته العظيمة عداوة لا هوادة فيها من اكبر رجال الدولة . فاقسم الكهنة والنساء السمر ليهلكنه ؛ وتحالف الحدب ورجال المال على ان ينغصوا عليه الحياة . وما زالوا به حتى شككوا فيه الخير نابوسان . وقد قضى زرادوشت بأن مايؤدى من خدمة يظل فى حجرة الانتظار ، وبأن الشك والريبة ؛ ينفذان الى ما وراء الأبواب . وكان كل يوم يتكشف عن اتهام جديد . فأما التهمة الاولى فتدفع ، واما التهمة الثانية فتمس مسا رفيقا ، واما الثالثة فتجرح ، والرابعة هى التى تقتل .

وكان زديج قد ارتاع لما رأى ، وكان قد باع تجارة صديقه سيتوك وحصل امواله ، فلم يفكر منذ ذلك الوقت الا فى الرحيل ؛ وازمع ان يذهب بنفسه ليعلم علم استارتيه . وكان يقول لنفسه : « ان اقمت فى سرنديب دفعنى الكهنة الى العذاب . ولكن الى اين اذهب ! سأكون رقيقا فى مصر ، وسأحرق اكبر الظن ان ذهبت الى بلاد العرب ، وسأشنق فى بابل . ومع ذلك يجب ان أعلم مصير استارتيه ، فلنرتحل ولننظر ماذا ادخر لى القضاء الكئيب . »

الفصل السادس عشر

قاطع الطريق

بلغ زديج الحدود التي تفصل بين بتراء وسوريا ، فرأى قصرا عظيما خرج منه اعراب مسلحون ، ورأى نفسه وقد احيط به والأعراب من حوله يتصايحون : « كل مامعك من مال فهو لنا ، اما شخصك فلسيدنا . » وقد أجاب زديج فاستل سيفه ، وكان خادمه شجاعا فصنع صنيعه . وما هي الا ان يصرعا من الأعراب أول من تقدم اليهما ليضع عليهما يده ، ثم تضاعف العدد ، فلم يدهشهما ذلك وانما أزمعا أن يموتا محاربين . وكان رجلان يقاتلان جماعة ضخمة من الناس وموقعة كهذه لايمكن أن تطول . وكان صاحب القصر واسمه اربوجاد ينظر من احدى النوافذ ، فلما رأى بلاء زديج ونجدته لاجبه ، فنزل مسرعا واقبل حتى فرق عنه الجماعة وقال : « كل مامر بأرضي فهو لي ، وكل ماوجدت بأرض غيري فهو لي ايضا ، ولكني أراك رجلا شجاعا ، فقد وضعت عنك ثقل هذا القانون العام . » ثم أدخله القصر ، وأمر أصحابه ان يحسنوا العناية به . فلما كان المساء دعاه الى مائدته .

وكان سيد القصر رجلا من هؤلاء الأعراب الذين يسمون لصوصا ، ولكنه كان احيانا يأتي قليلا من الحسنات بين كثير من السيئات : كان يسرق في كثير من الطمع وحب المال ، وكان يعطي في كرم وسخاء . كان شجاعا في الحرب ، حلو العشرة ، ماجنا

على المائدة مرحا فى مجونه ، وكان على هذا كله شديد الصراحة . وقد أعجبه زديج اعجابا شديدا ، وقد كان حديثه نشيطا حيا فطال جلوسه الى المائدة . ثم قال اربوجاد : « انى انصح لك بان تنضم الى جندى ، فذلك خير ماتستطيع ان تصنع ، فان هذه المهنة لابأس بها ، وجائز ان تصل ذات يوم الى ماوصلت أنا اليه . » قال زديج : « هل لى ان اسالك منذ كم مارست هذه المهنة الشريفة ؟ » اجاب : « منذ شبيبتى الأولى ، فقد كنت خادما لعربى ماهر ، وكنت ابغض مكانى منه اشد البغض ، وكنت شديد الحنق لما كنت ارى من ان هذه الأرض التى سخرت للناس جميعا لم يتح لى منها نصيب . فافضيت بهمى الى عربى شيخ ، فقال لى : يابنى لاتياس ، فقد كان فى قديم الزمان حبة من رمل تشكو مر الشكوى من انها ذرة ضئيلة فى الصحراء ، فلما مضت عليها سنون أصبحت ماسة ، وهى الآن ابهى مايزدان به تاج ملك الهند . وقد اثر فى هذا الحديث . كنت حبة الرمل ، فازمعت ان اصبح ماسة . وقد بدأت فسرقت فرسين ، ثم جمعت حولى بعض الرفاق ، وتهيأت للسطو على صغار القوافل ، وكذلك الغيت قليلا قليلا ماكان بين الناس وبينى من الفروق . وقد اخذت حظى من متاع هذه الدنيا . ولعلى ان اكون نلت من الخير أضعاف ما احتملت من الحرمان . وقد ارتفعت مكانتى بين الناس واصبحت اميرا قاطع طريق ، واخذت هذا القصر عنوة . وقد هم حاكم سوريا ان ينتزعه منى ، ولكنى كنت قد بلغت من الغنى حدا لااخاف معه شيئا . ثم بسطت سلطانى على جزء عظيم من الأرض ، وعهد الى أن اكون جابيا للأتاوة التى تؤديها بتراء الى ملك الملوك . وقد جبيت الأتاوة ، ولكن لم أؤد منها شيئا

« وقد ارسل خازن بيت المال للملك مؤبدار فى بابل حاكما ما ليشنقنى ، وقد اقبل هذا الرجل ومعه الأمر بشنقى ، وكان

يعلم كل شيء ، وقد شنقت بين يديه الاشخاص الاربعة الذين استصحبهم لشنقي . ثم سألته ماعسى ان يغل عليه شنقي من المال ؟ قال : نحو ثلاثمائة دينار ، فبينت له انه يستطيع ان يكسب عندي اكثر من ذلك . ثم جعلته لصا مساعدا ، وهو الآن من خيرة رجالي . وانك لخليق ان اطعتني ان تنجح كما نجح . فلم تكن الظروف قط مواتية للسطو كما هي الآن بعد قتل مؤدبار . »

قال زديج : « قد قتل مؤدبار ؟ والام صار امر الملكة استارتيه ؟ » قال اربوجاد : « لا ادري ! وكل ما اعرفه هو ان مؤدبار قد جن ثم قتل ، وان بابل قد اصبحت موطنا للجرائم ، وان الدولة كلها قد ظهر فيها الفساد ، وان هناك سبلا الى العمل ، واني قد بليت بلاء حسنا وحقيقا بالاعجاب . » قال زديج : « ولكن اضرع اليك في أن تنبئني : الا تعلم من امر الملكة شيئا ؟ » قال اربوجاد : « لقد حدثت عن امير لاركانيا ، واحسب انها بين امائه ان لم تكن قد قتلت في الموقعة . ولكني احرص على الغنيمة مني على الانباء . وقد اخذت في غزواتي نساء كثيرات وبعتهن جميعا ، وانا اغالي بالحسان منهن دون ان احتفظ بواحدة منهن او اسأل عن انبائهن . وليس من سبيل الى شراء المراتب ، وان الملكة القبيحة لخليقة الا تجد مشتريا . ولعلي قد بعت الملكة استارتيه ، ولعلها قد ماتت ، لا يعنيني شيء من ذلك ، وانت خليق الا تعنى بشيء من ذلك . » وكان يقول ذلك ويمعن في الشرب حتى اختلط عليه كل شيء . ولم يستطع زديج ان يعلم منه شيئا .

فلبث ذاهلا واجما قد اثقلته الهموم . وكان اربوجاد ممعنا في شربه ، ملحا في حديثه ، معلنا دائما انه اسعد الناس ، ملحا على زديج ان يجعل نفسه سعيدا مثله . ثم دفعته الخمر الى نوم هادىء هنيء . واتفق لزديج ليلته مضطربا اشد الاضطراب . وكان يقول لنفسه « مالنا ! لقد جن الملك وقتل !

انى لأرثى له اشد الرثاء . لقد مزقت الدولة ، وقاطع الطريق هذا سعيد . باللحظ ! باللقضاء! . ان اللص لسعيد ، وان اجمل من صورت الطبيعة يمكن ان يكون قد مات ابشع الموت . او ان يكون قد كتبت عليه حياة شر من الموت . اى استارتيه الام صار امرك ؟ .

فلما أسفر الصبح جعل يسأل كل من لقيه فى القصر ، ولكن الناس جميعا كانوا عنه فى شغل فلم يرجع عليه احد جوابا . وكان القوم قد اغاروا وغنموا اثناء الليل ، فكانوا يقتسمون الغنائم . وكل ما استطاع ان يظفر به فى هذا الاضطراب والاختلاط هو الاذن له بالسفر ، فأسرع الى الرحيل غارقا فى تفكيره الأليم

ومضى زديج امامه مضطربا قلقا قد شغل عقله بالبائسة استارتيه وبملك بابل ، وبخليله كادور ، وباللص السعيد اربوجاد ، وتلك المراة الجامحة التى اختطفها البابليون على حدود مصر ، ثم كل المصاعب والمصائب التى الحت عليه .

الفصل السابع عشر

الصائد

فلما كان على مراحل من قصراربو جاد وجد نفسه على شاطىء جدول صغير وهو يندب حظه ويرى انه صورة صادقة للشقاء . ولكنه رأى غير بعيد منه صائدا نائما على الشاطىء ممسكا فى فتور وبيد كسلى شبكته التى كان كأنه يهملها وقد رفع عينيه الى السماء وهو يقول:

ـ انى لأشقى الناس جميعا ، مافى ذلك شك . لقد كنت عند اهل بابل أعظم باعة الجبن الأبيض ، ثم حل بى الخراب . ولقد كانت زوجى أجمل امرأة أتيحت لرجل وقد خاننى . وقد بقيت لى دار ضئيلة حقيرة ، فرأيتها تنهب وتدمر ، وأنا الآن لاجىء الى كوخ صغير لا أجد سبيلا الى الرزق الا الصيد ، ولكن لا أظفر بسمكة واحدة . أيتها الشبكة لن القيك فى الماء بل سألقى نفسى فيه .

ثم ينهض ويسعى فى هيئة الرجل الذى يريد ان يلقى نفسه فى الماء ليختم حياته .

قال زديج لنفسه : « ماذا ؟ أفى الناس من يعدل شقاؤهم شقائى ! » ثم كان نشاطه الى انقاذ هذا الرجل سريعا كخاطره

هـذا ، فيجرى اليـه فيمسكه ويسـاله فى لهجة يشـيع فيها الرفق والحنـان والتعـزية . والناس يزعمون أن الشقاء يخف على الانسان اذا لم يكن وحيدا . ولـكن مصدر ذلك فيمـا يقول زرادوشت ليس هـو الدهـاء ، وانمـا هى الحاجـة ؛ فالانسان يشعر حينئذ بأنه مجذوب الى انسان شـقى كما يجذب النظير الى نظيره ؛ بحيث يصبح ابتهاج الرجل السعيد كأنه اهانة للبؤس . ولكن الشقيين اذا التقيا كانا اشبه بشجرتين تعتمد كل واحدة منهما عـلى صاحبتها فتثبتـان بذلك للعاصفة .

قال زديج للصياد : « لمـاذا تستسلم للشقاء ؟ » قال الصياد : « لانى لا اجد لى منه مخرجا ، لقد كنت ارفع الناس مكانة فى قرية دير لباك قريبا من بابل ، وكنت اصـنع مستعينا بامرأتى اجود مـافى الدولة مـن الجبن الأبيض ؛ وكانت الملكة استارتيه والوزير المشهور زديـج يحبان هذا الجبن اشد الحب . وقـد قدمت الى قصريهما سـتمائة قطعة منـه . وذهبت ذات يوم الى المدينة لأقبض الثمن ؛ فلما وصلت الى بابل عرفت أن الملكة وزديج قد استخفيا . فأسرعت الى قصر زديج ولم اكن عرفته قط ، واذا انا ارى جند صاحب الخـزانة ومعهم امـر ملـكى ينهبون القصر ويدمرونه كأحسن ما يـكون النهب والتـدمير . ينهبون القصر ويدمرونه كأحسن وهنالك انبانى بعض القائمين على طعامها انها ماتت وقال آخرون انها فى السجن ، وزعم آخرون انها لاذت بالفرار . ولكنهم جميعا اكدوا لى أن ثمن الجبن لن يؤدى الى . فذهبت ومعى امراتى الى الأمير اوركان ؛ وكان أحد عملائى وطلبت اليه ان يحمينا من هذه المحنة . فمنح حمايته لامراتى

ورفض ان يمنحنى اياها ، وكانت انصع بياضا من هذا الجبن الذى كان اصل شقائى ، ولم يكن اشراق الأرجوان الذى تصدره مدينة صور اشد بهجة مما كان يشرب بياضها من الحمرة . وهذا هو الذى اغرى أوركان باحتجازها وطردى من قصره ، فكتبت الى امرأتى العزيزة رسالة من بلغ به الحزن حد اليأس . فقالت لمن أدى اليها الرسالة :« انى لا أعرف صاحبها ! لقد سمعت الناس يتحدثون عنه ، يقال انه يصنع جبنا متقنا فليحمل الى بعض هذا الجبن وليؤد اليه ثمنه . »

« فلما اشتد بى الشقاء اردت أن الجأ الى القضاء . ولم يكن بقى لى الا ستة مثاقيل من ذهب فلم يكن بد من ان ادفع اثنين منها الى رجل القانون الذى استشرته ، واثنين للنائب الذى تولى قضيتى ، واثنين لأمين القاضى الأول . فلما فرغت من هذا كله لم تكن قضيتى قد ابتدئت ، وكنت قد انفقت من المال أكثر مما يساوى جبنى ومما تساوى امرأتى . فعدت الى قريتى وأنا اريد أن ابيع داري لاسترد امرأتى .

« وكانت دارى تقوم بستين مثقالا من الذهب ، ولكن الناس كانوا يرونني فقيرا حريصا على البيع . فساومنى اول من عرضت عليه الدار ثلاثين مثقالا ، وعرض على الثانى عشرين والثالث عشرة . وكنت مستعدا لامضاء البيع لكثرة ماكان يشغلنى عن التبصر فى أمرى ، ولكن أمير اركانيا اقبل مغيرا على بابل ودمر فى طريقه كل شيء ، ونهبت دارى أول الأمر ثم اشعلت فيها النار .

« فلما فقدت مالى وامرأتى ودارى اويت الى هذه الارض

حيث تراني ، وحاولت ان اعيش من صناعة الصيد. ولكن السمك يسخر مني كما يسخر مني الناس فلا آخذ منه شيئا . وقد كاد الجوع ان يهلكني ، ولولا انت ايها المعزى الكريم لأغرقت نفسي في هذا النهر. »

لم يسق الصياد قصته هذه على نسق واحد ، فقد كان زديج يقاطعه من وقت الى وقت متأثرا محزونا قائلا : « ماذا ؟ ألا تعلم شيئا عن مصير الملكة ؟ » كان الصياد يجيبه : « لا ياسيدي ! ولكني اعلم ان الملكة وزديج لم يؤديا الى ثمن الجبن ، وان امراتي قد اخذت مني ، واني قد صرت الى اليأس . » قال : « انا ازعم انك لن تفقد مالك كله ، فقد سمعت الناس يتحدثون عن زديج هذا وهو رجل شريف ، وانه اذا عاد الى بابل كما يأمل ان يعود اليها لمؤد اليك اكثر ممالك عنده . اما امرأتك التي ليست على هذا الحظ من الوفاء فاني انصح لك ان تتخذ مكانها زوجا اخرى . صدقني وعد الى بابل ، وسابلغها قبل ان تصل أنت اليها ، فانا فارس وانت راجل . فاذا بلغت المدينة فاذهب الى كادور المشهور وقل له انك لقيت صاحبه في بعض الطريق وانتظرني عنده حتى القاك . امض فعسى الا تكون شقيا دائما . »

ثم مضى زديج قائلا : « أيها القوى العظيم اورزماد انك لتسخرني لتعزية هذا الرجل ، فمن عسى أن تسخر لتعزيتي ؟ » قال ذلك ودفع الى الصياد نصف المال الذي احتمله من بلاد العرب كلها ، وجعل الصياد الدهش السعيد يقبل رجليه ويقول : « انما أنت ملك منقذ . »

وكان زديج مع ذلك يطلب الأنباء ويذرف الدموع . قال

الصياد : « ماذا يا سيدى !أيمكن ان تكون شقيا الى هذا الحد وانت الذى يبذل المعروف؟ » قال زديج : « انى لاشقى منك مئة مرة . » قال الصياد :«ولكن كيف يمكن أن يكون من يعطى اشد شقاء ممن يأخذ ؟ » قال زديج : « لأن معظم شقائك يأتى من الحاجة ، أما شقائى فمصدره القلب . » قال الصياد : « ايمكن أن يكون اوركان قد اغتصب منك زوجك ؟ » فاثارت هذه الكلمة فى نفس زديج ذكرى مغامراته كلها ، وجعل يعدد ما ألم به من المصائب ، مبتدئا بكلبة الملكة ومنتهيا بوصوله الى قصر اربوجاد . ثم قال للصياد : « ان أوركان خليق أن يعاقب ، ولكن العادة جرت بأن أمثاله هم أحسن الناس حظا . ومهما يكن من شىء فامض الى قصر السيد كادور ،وانتظرنى هناك . » ثم افترقا ومضى الصياد يثنى على حظه ، وعاد زديج يلعن حظه لعنا .

الفصل الخامس عشر

الباسليك

وانتهى زديج الى مرج جميل، فراى جماعة من النساء يبحثن عن شيء ويمعن فى البحث . فاستباح لنفسه ان يدنو من احداهن وسألها : الا يستطيع ان يشرف بمعونتهن على التماس ما يبحثن عنه . قالت السورية : « اياك ان تفعل ، فان مانلتمسه لا ينبغى ان يمسه الا النساء . » قال زديج : « هذا شيء غريب ، هل لى ان اسألك عن هذا الذى لا ينبغى ان يمسه الا النساء ؟ » قالت : « انه الباسليك . » قال زديج : « الباسليك ياسيدتى ! وفيم تبحثن عن الباسليك ؟ » قالت السورية : « انما نبحث عنه لمولانا اوجول صاحب هذا القصر الذى تراه على شاطىء النهر فى أقصى المرج ، فنحن اماؤه ، وقد اصابته علة فوصف له الطبيب الباسليك مطبوخا فى ماء الورد . وهذا الحيوان نادر لا يستسلم الا للنساء ، فقد ازمع مولانا اوجول ان يتزوج ممن تظفر له بالباسليك ، فدعنى أبحث ان شئت ، فقد ترى ما اتعرض له ان ظفرت احدى صاحباتى من دونى بالباسليك . »

وقد ترك زديج هذه السورية وصاحباتها يبحثن عن الباسليك ، ومضى فى المرج يسعى امامه . حتى اذا بلغ شاطىء الجدول راى سيدة أخرى مستلقية لا تبحث عن شيء ، وكان قدها يظهر فخما وقد القى على وجهها انقاب ، وكانت منحنية نحو

الجدول ترسل من فمها زفرات عميقة . وقد اخذت بيدها عودا صغيرا جعلت تخط به حروفا على الرمل الدقيق المنبسط بين العشب والجدول. وقد أحس زديج الحاجة الى ان يتعرف ما كانت هذه السيدة تخط من حروف ؛ فدنا وتبين حرف الزاى ، ثم حرف الألف ؛ ثم ظهر حرف الدال ، فأخذته رعدة ؛ ولم يبلغ الدهش من احد قط ما بلغه منه حين راى الحرفين الاخيرين من اسمه . فلبث ساعة ساكنا ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج قائلا :« ايتها السيدة الكريمة ؛ عفوك عن غريب بائس اذا اجترأ فسألك بأى مصادفة مدهشة يجد هنا اسم زديج . » فلما سمعت السيدة هذا الصوت ، وهذه الألفاظ رفعت نقابها بيد مرتعدة ، ثم نظرت الى زديج ، ثم صاحت صيحة فيها الحنان والدهش والفرح ؛ ثم صرعتها العواطف المختلفة التى اخذت نفسها من كل وجه فخرت مغشيا عليها بين ذراعيه . وكانت هذه السيدة هى استارتيه ؛ هى ملكة بابل ، هى التى كان زديج يعبدها ويلوم نفسه على عبادتها ؛ هى التى بكى عليها اما بكى ، وخاف عليها ما خاف. فظل ساعة لا يملك من امر نفسه شيئا ؛ وقد وجه لحظه الى عينى استارتيه اللتين ، كانتا قد اخذتا تتفتحان فى فتور وخجل وحنان . هنالك صاح زديج :« ايتها القوة الخالدة التى تدبر مصير الناس ؛ ايمكن ان تردى الى استارتيه ؟ فى اى زمان فى اى مكان ، فى اى جمال القاها. » ثم جثا امام استارتيه ومرغ جبهته فى التراب عند قدميها . فتنهضه ملكة بابل وتجلسه الى جانبها على شاطىء الجدول ، ثم تمسح غير مرة عينيها اللتين كانتا لا تجفان الا لتستأنفا سكب الدموع . وكانت تستأنف عشرين

مرة حديثها الذى كان يقطعه الأنين . وكانت تسأله عن المصادفة التى جمعت بينهما ، ثم تصرفه عن أن رد عليها بأسئلة اخرى تلقيها عليه . وكانت تبدأ قصة آلامها ثم تقطع ذلك لتعرف من آلام زديج ما كانت تجهل . ثم انتهى آخر الأمر الى تهدئة ماسيطر على نفسيهما من اضطراب ، وقص زديج عليها فى حديث موجز ما الم به من الخطوب . ثم قال : « ولكن ايتها البائسة العزيزة كيف اتيح لى ان القاك فى هذا المكان المنعزل فى زى الأماء مرافقة نساء اخريات يبحثن عن الباسليك ليطبخ فى ماء الورد تنفيذا لأمر الطبيب ؟ »

قالت الحسناء استارتيه :

ـ سادعهن يبحثن عن الباسليك ، وسانبئك بكل ما احتملت وبكل ما اتجاوز عنه للأقدار بعد ان أتاحت لى لقاءك . لقد علمت ان الملك زوجى قد انكر ان تكون احب الناس الى النفوس ، ومن اجل هذا ازمع ذات ليلة ان يشنقك ويسمنى . وقد علمت كيف اذن الله للقزم الأخرس أن ينبئنى بما دبر الملك العظيم . وماكاد الوفى كادور يكرهك على ان تطيع امرى وتفر من بابل حتى دخل على بعد ان نفذ الى القصر من باب سرى . ومن هناك اختطفنى وذهب بى الى معبد أوروزماد حيث خبأنى اخوه الكاهن فى جوف تمثال عظيم تستقر قاعدته عند اساس المعبد ، ويبلغ راسه قبته . هناك اقمت كالمدفونة . ولكن الكاهن كان يخدمنى ويوفر لى كل حاجاتى بحيث لم ينقصنى شىء مما لابد منه . ثم لم يسفر الصبح حتى دخل غرفتى صيدلى الملك يحمل شرابا مزاجه سم ناقع من البنج والأفيون

ثم حنا أمام استارته ومرغ جبهته فى التراب عند قدميها

obeikandl.com

والشوكران والخـــربق وخانق الذئب . وذهب موظف آخر الى قصرك ومعنـه حبل من حرير ازرق ، فلم يوجد منـا احد . ولزمع كادور ان يخـدع الملك فاقبل اليه يشكونى ويشكوك ، وزعم انك اتخذت طريقك الى الهند ؛ وانى اتخذت طريقى الى مصر ، فارسل السعاة فى اثرك وفى اثرى .

« وكان الذين يطلبـــوننى لايعرفوننى . ولم اكن قد اظهرت وجهى قط الا لك بمحضر مـن الملك وبأمره . فمضوا يطلبوننى على هدى الصورة التى وصفتهم عليها ، فصادفوا على حدود مصر امراة لها قامتى ؛ ولعلهـا ان تـكون اجمل منى . وكانت باكية هائمة . فلم يشكوا فى انها ملكة بابل ، فحملوها الى مؤبدار . فلمـا راى الملك خطأهم اخذه غضب عظيم ، ولكنه تأمل ملامح هـــذه المرأة ، فراى جمالهـا وبهجتها ، فسكت منه الغضب واسرع اليه العزاء . وكانت هذه المراة تسمى ميسوف وقيل لى بعد ذلك ان هذا الاسم معنـاه عند المصريين الجامحة الحسناء . وكانت جامحة حقـــا ، ولـكن مهارتها لم تكن اقل من جموحها ، وقد اعجبت مؤبدار وتسلطت عليه ، حتى اعلن انها اصبحت له زوجا . وهنالك ظهر خلقها كله ؛ فاندفعت فى غـير خوف الى كل ما اوحى اليها خيـالها من آيات الجنون . وقد ارادت ان تكره عظيم الـكهنة ، وكان شيخا كبيرا قد اخذه التقرس ، على ان يرقص بين يديها ، فلما ابى اضطهدته اشد الاضطهاد . وقد امرت صاحب خيلهـا ان يصنع لها كعكة من الحلوى . وقد اجتهد صاحب الخيل فى ان يقنعها بانه ليس صاحب هذه الصناعة ، ولكنهـا ابت الا ان يطيع ، ثم عاقبته بعد ذلك لأن كعكته اصابها بعض الحريق . وقـــد اختارت قزمها لمنصب

صاحب الخيل ، وجعلت سياسة الدولة الى احد خدم القصر . وكذلك حكمت مدينة بابل . وكان الناس جميعا يذكروننى آسفين . اما الملك الذى كان رجلا شريفا مستقيما الى اليوم الذى ازمع فيه ان يقتلنى ويشنقك ، فكان يظهر كانما أغرق فضيلته فيما استأثر به من حب عظيم للجامحة الحسناء. فلما كان يوم العيد المقدس سعى الى المعبد ، ورايته جاثيا امام التمثال الذى كنت استخفى فيه وهو يستنزل عطف الآلهة على ميسوف ، فرفعت صوتى صائحة به :

« ان الآلهة يأبون ان يسمعوا لملك اصبح طاغية ، وهم ان يقتل امراة عاقلة ليتزوج مكانها امراة خرقاء . » وقد صدم مؤبدار بهذا الكلام حتى اختلط عقله . فكان الوحى الذى القيته وطغيان ميسوف كافيين ليفقد الرجل صوابه فلم تمض ايام حتى انتهى الى الجنون .

« وكان جنونه الذى راى الناس فيه عقابا من السماء اول بوادر الثورة . فثار الناس وطاروا الى اسلحتهم ، واصبحت بابل التى طال عهدها بالبطالة والترف ميدانا لحرب اهلية منكرة ، فأخرجت من جوف التمثال ووضعت على رأس احد الاحزاب . واسرع كادور الى ممفيس ليردك الى بابل . ولكن امير اركانيا لم يكد يعلم بهذه الاحداث حتى اقبل بجيشه ، فكون حزبا ثالثا فى بلاد الكلدانيين وقد هجم على جيش الملك فاسرع الملك الى لقائه فى حماقته المألوفة ومعه مصريته الخرقاء . فقتل مؤبدار مطعونا ، وسقطت ميسوف بين ايدى المنتصرين . واراد سوء الحظ ان يأخذنى انا ايضا جماعة من جند اركانيا وان اقاد امام الأمير فى نفس الوقت الذى قيدت اليه فيه

ميسوف . وقد يتملقك فيما اظن ان تعلم ان الامير وجدني اجمل من المصرية ، ولكن قد يسوءك ان تعلم انه اضافني الى حريمه ، وقال لي في عزم وتصميم انه سيسعى الى متى فرغ من غارة كان يريد ان يتمها ، فقدر لي . لقد انقطعت الأسباب بيني وبين مؤبدار ، واصبح من الممكن ان اقترن بزديج وهذه الأقدار تسلمني الى أمير متوحش . وقد اجبته مع كل الكبرياء التي تتيحها لي منزلتي وعواطفي . لقد سمعت دائما ان السماء تمنح امثالي من الناس مزية تتيح لهم اذا نطقوا بكلمة او نظروا نظرة ، ان يردوا الى الضعة والاستخذاء كل جريء يحاول ان يريدهم بسوء . وكنت اتحدث حديث الملكة . ولكني عومت معاملة الوصيفة فلم يلتفت الاركاني الى ، وانما قال لخصيه الأسود انه يجدني وقحة ولكنه يراني حسناء . ثم امره ان يحسن العناية بي ويحملني على خطة الحظايا في الطعام والشراب ، حتى يردني رخصة مشرقة ، وحتى اصبح اهلا لارضاه حين يتفضل فيمنحني قربه . وقد اعلنت اليه اني ساقتل نفسي ، فأجاب ضاحكا ان الناس لا يقتلون انفسهم ، وانه خبير بهذا النحو من الأباء . ثم انصرف عني وكأنه رجل قد وضع بيغاء في حظيرته التي خصصها لغرائب الحيوان . فالى اي هوان دفعت أكبر ملكات الارض ! بل الى اي حال دفع هذا القلب الذي كان موقوفا على زديج ! »

هنالك جثا زديج امامها وبلل ركبتيها بدموعه . فانهضته استارتيه في حنان ومضت قائلة:

— فكنت ارى نفسي أسيرة عند همجي متوحش ، وخصما لامرأة مجنونة قد حبست معي . وقد حدثتني بقصتها في مصر . وقد

عرفت من الملامح التى ذكرتهـا ومن وصف النجيب الـذى كان يحملك ، ومن كل الظروف التى احاطت بهذه القصة ان زديج هو الذى قاتل من اجلها . ولم اشك فى انك كنت مقيما فى ممفيس ، فأزمعت ان آوى اليها . فقلت لها : « ايتها الحسناء ميسـوف انك انضر منى جمالا ، واقـدر منى على تلهية امير اركانيـا . اعينينى على الهرب فسيتيح ذلك لك ان تتسلطى وحـدك ، وان تسعدى بالتخلص من منافسة . » وقد دبرت ميسوف معى وسيلة الهـرب ، فانسللت ذات يوم ومعى خادم مصرية .

« وكنت قـد قاربت بلاد العرب . ولكن قاطع طريق يسمى اربوجاد يعـدو على فيخطفنى فيبيعنى لبعـض التجـار ، ويحملنى هؤلاء الى هذا القصر الذى يقيم فيه السيد اوجول . وقد اشترانى دون ان يعرف من اكون . وهو رجل صاحب لذة لا يعنيه الا ان يعكف على الطعام ، وهو يعتقد ان الله لم يخلقه الا ليجلس الى المائدة . وهـو ضخم قـد تجاوزت ضخامته الحد حتى لتوشك ان تخنقه ، وليس لطبيبه عنده خطـر اذا حسن هضمه لما يلتهم ، ولكنه يحكمه حكم الطاغية اذا اسرف على نفسه فى الاكل . وقد القى فى روعه انه سيبرأ من علته اذا اكل الباسليك مطبـوخا فى ماء الورد . وقد وعد السيد اوجول بازواج أى امائه تحمل اليـه الباسليك . وها انت ذا ترى انى اتركهن يجهدن فى استحقاق هذا الشرف ، وما اعرف انى زهدت فى الظفـر بالباسليك بمقـدار ما زهدت فيه منذ اذنت السماء لى فى ان القاك . »

ثم افضى كل من العاشـقين الى صـاحبه بكل ما توحيـه العواطف التى طال كبتها ، و بكل ما تلهم الآلام والحب للقـلوب

الكريمة من حنان نبيل، ورفعت الأرواح الموكلة بالحب حديثهما حتى بلغت به فلك الزهرة .

وقد عاد النساء الى القصر دون أن يجدن شيئا . ومثل زديج بين يدى اوجول متحدثا اليه على هذا النحو : « تهبط العافية الخالدة من السماء لتعنى بحياتك كلها . انى طبيب ، سمعت بعلتك فأسرعت اليك احمل الباسليك مطبوخا فى ماء الورد ، ولست اطلب لذلك ثمنا ان اقترن بك ، وانما اطلب ان تعتق امة شابة بابلية حملت الى هذا القصر منذ ايام ، وانا زعيم ان أكون فى مكانها من الرق ان لم تشف الأمير العظيم أوجول . »

وقد قبل عرض زديج ، وسافرت استارتيه الى بابل ومعها خادمة ، وقد وعدته بأن ترسل اليه فى اقرب وقت رسولا ينبئه بكل ما يجرى فى بابل من الأحداث . وكان وداعهما مفعما بالحنان كما كان لقاؤهما .

وقد جاء فى كتاب الزند العظيم ان ساعة اللقاء وساعة الوداع هما أخطر ساعات الحياة . وكان زديج يحب الملكة بمقدار ما كان يؤكد لها حبه ، وكانت الملكة تحب زديج اكثر مما كانت تعلن اليه .

ثم قال زديج لأوجول : « سيدى ان الباسليك الذى احمله لايؤكل وانما تتمالك خصائصه من طريق المسام . وقد وضعته فى قربة منفوخة مغطاة بجلد رقيق . فيجب ان تدفع هذه القربة بكل ما تقدر عليه من قوة وان اردها عليك . واذا امضينا على هذا النحو اياما قليلة فسترى الى اى حد يستطيع فنى ان يصل . » فلما كان اليوم الاول وجد اوجول مشقة عظيمة فى التنفس حتى ظن انه ميت من الأعياء . ولما كان اليوم الثانى تعب أقل من امس ونام احسن مما نام امس . ولم تمض ايام ثمانية حتى استرد كل قوته وخفته ومرحه الذى الفه فى اعوامه السعيدة . قال له زديج : « انما لعبت بالكرة واخذت نفسك بالقناعة ، فتعلم ان الباسليك

لايوجد فى الطبيعة ، وان صحة الانسان رهينة بالقناعة والتمرين وان الفن الذى يتيح للانسان ان يجمع بين الصحة والشره انما هو فن خيالى يشبه حجر الفلاسفة وطوالع النجوم وسحر الكهان . »

وقد احس طبيب اوجول بان زديج قد اصبح خطرا بالقياس اليه ، فاتفق مع صيدلى القصر على ان يرسل زديج يلتمس الباسليك فى العالم الآخر . وكذلك بعد ان عوقب زديج على احسانه اصبح الان معرضا للموت لانه ابرأ من العلة اميرا شرها . وقد دعى الى وليمة فاخرة . وكان قد تقرر ان يوضع له السم فى الدور الثانى من ادوار المائدة . ولكنه فى الدور الاول تلقى كتابا من الحسناء استارتيه . فترك المائدة ومضى لوجهه . وقد قال زرادوشت العظيم : « ان الانسان الذى تحبه غادة حسناء ينقذ دائما من المشكلات فى هذه الحياة . »

مجموعة فخمة من نظارات الشمس ومنها نظارات العدسة الواحدة ذات "لونين" بحيث لاتؤثر على عينيك إذا لبستها ليلا

الفصل التاسع عشر

المبارزة

كان استقبال الملكة فى بابل مليئا بالعطف على ملكة حسناء بائسة . وكانت بابل فى ذلك الوقت تظهر هادئة مطمئنة ، فقد قتل امير ركانيا فى بعض المواقع ، وقرر البابليون المنتصرون ان استارتيه ستكون زوجا للامير الذى يختارونه ليكون لهم ملكا . وقد ابوا ان يكون ارفع مكان فى العالم وهو مقام الذى سيقترن باستارتيه ويصبح ملكا على بابل موضوعا للدسائس والكيد ، فاقسموا ليملكن على انفسهم اعظم الناس حظا من الشجاعة والحكمة . وقد انشىء على فراسخ من بابل ميدان عظيم احاطت به مدرجات فخمة قد زينت احسن زينة واروعها ، وكان على المصطرعين ان يذهبوا اليه مدججين بالسلاح ، وكان لكل واحد منهم من وراء المدرجات بيت يعتزل فيه فلا يراه احد ولا يرى احدا . وكان عليهم ان يطاعنوا بالرماح اربع مرات ، وكان على الذين يتاح لهم ان يقهروا اربعة فرسان ان يصطرعوا فيما بينهم ، حتى اذا اتيح لاحدهم ان ينتصر على خصومه جميعا ويصبح سيد الميدان اعلن انه هو الفائز فى المسابقة ، ثم وجب عليه ان يأتى بعد اربعة ايام مدججا بالسلاح ليحل الالغاز التى يعرضها عليه الكهان ، فاذا لم يوفق لحلها لم يرق الى العرش ووجب استئناف المبارزة من جديد حتى تظفر المدينة بالمنتصر الذى يقهر الخصوم فى الميدان ، ويحل الالغاز امام الكهنة ، لان البابليين كانوا يرون الا يملك عليهم الا من كان شجاعا حكيما

وكان يجب ان تحرس الملكة فى اثناء هذه الايام حراسة شديدة دقيقة ، ولا يسمح لها الا بان تشهد المبارزة وقد ألقت على وجهها نقابا ، ولكن لا يؤذن لها ان تتحدث الى احد من المتنافسين حتى لا تكون محاباة ولا يقع جور.

بهذا كله كتبت استارتيه الى خليلها آملة أن يظهر فى سبيلها من الشجاعة والذكاء مالا يستطيعه أحد غيره ، وقد وصل زديج الى شاطىء الفرات قبيل ذلك اليوم العظيم ، وقد سجل شعاره بين شعار غيره من المتنافسين ساترا وجهه مخفيا اسمه كما يقضى بذلك القانون ، ثم ذهب الى البيت الذى خصصته له القرعة ، وكان صديقه كادور قد عاد الى بابل بعد أن بحث عنه فى مصر بغير طائل ، فأرسل الى بيته لامة كاملة كانت الملكة قد بعثت بها اليه ، وقاد اليه من عندها كذلك اجمل جواد من خيل فارس. وقد عرف زديج الملكة فى هديتها ، فاستمد من هذه المعرفة قوة وثقة واملا .

فلما كان الغد أقبلت الملكة فجلست تحت مظلة يزينها الجوهر واكتظت المدرجات بالسيدات وبالرجال من جميع الطبقات ، وظهر المتنافسون فى الميدان ، وأقبل كل واحد منهم فوضع شارته عند قدم الكاهن الاعظم ، ثم أجريت القرعة بين الشارات فكانت شارة زديج هى الاخيرة. وكان أول من تقدم سيد يدعى ايتوباد . وكان عظيم الثراء كثير الغرور قليل الشجاعة ، اخرق قليل العقل ، وكان خدمه قد القوا فى روعه ان رجلا مثله يجب ان يكون ملكا . فأجابهم : « ان رجلا مثلى يجب ان يملك » . فسلخوه من راسه الى قدمه . وكان يحمل لامة مرصعة بالخضرة وعلامة خضراء ورمحا تزينه شرائط خضر . وقد لاحظ الناس حين رأوا سياسته لفرسه انه ليس هو الرجل الذى قدر له أن يستأثر بصولجان بابل . وقد استطاع اول فارس سعى اليه ان يزعجه عن مكانه . واستطاع الثانى ان يكبه على عجز فرسه وقد ارتفعت ساقاه فى الهواء وامتدت ذراعاه . وقد

استطاع ايتوباد ان يستوى فى سرجه ولكن على نحو غريب أضحك منه الناس جميعا . واقبل الثالث فلم يتكلف استعمال رمحه وانما مر الى جانبه فأخذه من ساقه اليمنى والقاه على الرمل القاء ، واسرع ساسة الميدان اليه ضاحكين فردوه الى سرجه . ولكن المبارز الرابع يأخذه من ساقه اليسرى ويلقيه على الرمل من ناحيته الاخرى ، ثم قيد تشيعه السخرية الى بيته حيث كان يجب ان ينفق الليل بحكم القانون . وكان يقول وهو يسعى ظالعا : « اى مغامرة بالقياس الى رجل مثلى ! »

وادى الفرسان الآخرون واجبهم كأحسن ما استطاعوا ، فكان منهم من هزم مبارزين متتابعين ومنهم من وصل الى ان يهزم ثلاثة . ولم ينتصر على اربعة الا اميراوتام . ثم برز زديج فازعج عن خيلهم فرسانا اربعة فى كل رشاقة ممكنة . ولم يبق الا ان يعرف ايهما سيكون له الفوز : الامير اوتام أم زديج . وكان الاول يحمل لامة زرقاء مذهبة وعلامة من لونه ، وكانت لامة زديج بيضاء . وكانت امانى الناس كلهم مقسمة بين الفارس الازرق والفارس الابيض . وكان قلب الملكة يخفق ، وكانت تتوسل الى السماء لتنصر اللون الابيض .

وقد تبادل الفارسان الكر والفر فى خفة ورشاقة وتبادلا طعنات رائعات بالرماح ، وكانا جميعا ثابتين فى سرجيهما ، حتى تمنى الناس كلهم الا الملكة ان يكون لبابل ملكان . ثم اجهد الفرسان وانحطم الرمحان ، فعمد زديج الى هذه الحيلة وهى انه اسرع فاستدبر جواد الفارس الازرق ثم وثب فاصبح رديفه على فرسه ، ثم اخذه من خصره فانتزعه من سرجه فالقاه على الارض ، ثم ياخذ مكانه من السرج ويدور حول أوتام الملقى صريعا على الارض . هنالك ضجت المدرجات كلها : « الفوز للفارس الابيض ! » ويستاثر الغضب باوتام فينهض ويستل سيفه ، ويثب زديج عن فرسه والسيف مصلت فى يده ، وهاهما

هذان فى الميـــدان يختصـــمان خصومة تنتصر فيها القوة مرة والخفة مرة اخرى ، وقد اخـذريش خوذتيهما ومسامير مفقريهما وخرز درعيهما تتطاير الى بعيد لعنف ماكانا يتبادلان من الضربات ، وكلاهما يضرب بحـد السـيف وعرضه عن يمين وعن شمال ، على الرءوس وعلى الصـدور ، وهما يتأخـران ويتقدمان ، ثم يتبادلان التحدى ، ثم يلتحمان ، ثم ياخذ كل منهما بصاحبه ثم ينعطفان كانهمـا الحيتـان ، ثم يهجم كل منهما على صاحبه كانه الاسـد . والنار تتطاير فى كل لحظة من وقع ضرباتهمـا . ثم يثوب زديج الى نفســه ساعـة فيقف ثم يحتال ثم يمـر الى جانب اوتام فيلقيه على الارض ويجرده من سلاحـه ، ويصيح اوتام : « أيهـا الفارس الابيض انت وحدك اهل لعرش بابل . »

وقد بلغ الفرح بالملكة اقصاه . ثم يقاد الفارس الازرق والفارس الابيـض كـل الـى بيتـه شـان المتنافسين جميعـا كما قضى بذلك القانون . واقبل خدم خرس يحملون اليهم الطعام ...

وتستطيع أن تقـدر ان قزم الملكة الاخـرس هو الذى حمـل الطعام الى زديج . ثم خلى بينهما وبين النوم ليقبل المنتصر اذا كان الغـد فيحمل شارته الى الكاهن الاعظم ليمتحنها ويعرف صاحبها

وقد نام زديج وان كان عاشقا ، لان الجهد كان قد بلغ منه غايته . أما ايتوباد الذى كان بيته قريبا من بيت زديج فلم ينم ، وانما نهض أثناء الليـل ودخـل بيت زديج فأخذ لامته البيضاء وشارته وترك له لامته الخضراء . فلما ذر قرن الشـمس ذهب الى الكاهن الاعظم وأعلن اليه ان رجلا مثله هو الفـائز ، ولم يكن النـاس ينتظرون ذلك ، ولكن فوزه أعلن على حين كان زديج لا يزال مغرقا فى نومه ، وقد عادت استارتيه الى بابل دهشة قد ملأ الالم قلبها ،

خصومة تنتصر فيها القــوة مرة ، والجفــة مرى اخرى

obeikandl.com

وكانت المدرجات قد كادت تخلو من النظارة حين استيقظ زديج فالتمس سلاحه فلم يجد الا هذه اللامه الخضراء ، فاضطر الى أن يدخل فيها لانه لم يجد شيئا آخر يستر به جسمه وقد لبس هذا السلاح دهشا مغضبا وتقدم فى أداته الغريبة هذه .

وجعل كل من بقى فى المدرجات والميدان يستقبلونه ساخرين منه يحيطون به ويواجهونه بالاهانة . ولم يلق احد قط مثل مالقى من الاهانة المخزية . فقد صبره وفرق الناس عنه بسيفه ، ولكنه كان حائرا لايدرى ماذا يصنع . لم يكن يستطيع ان يرى الملكة ، ولم يكن يستطيع ان يطالب بلامته البيضاء التى سرقت منه ، فلو قد فعل ذلك لفضح سر الملكة . وكذلك اجتمع عليه الالم والغضب والقلق ، وجعل يمشى على شاطىء الفرات مقتنعا بان القضاء قد كتب عليه شقاء محتوما لامخرج منه ، مستعرضا فى نفسه مصائبه كلها من المرارة التى كانت تكره العور الى نكبته فى سلاحه . وكان يقول لنفسه : « هذا جزائى لانى استيقظت متأخرا . ولو قد نمت اقل مما نمت لاصبحت ملك بابل وزوج استارتيه . واذن فالعلم والاخلاق والشجاعة لم تنته بى الا الى الشقاء » . ثم افلت منه شىء من الاعتراض على القدرة الالهية ، وكان يؤمن بأن العالم خاضع لقضاء قاس يظلم الاخيار ويسبغ النعمة على الفرسان الخضر . وكان مما يحزنه اضطراره الى حمل هذه اللامة الخضراء التى عرضت صاحبها لكثير من السخرية . وما هى الا ان يمر به بعض الباعة فيبيعه سلاحه بثمن بخس ويشترى منه ثوبا وقلنسوة . ويمضى فى هذا الزى مصاحبا شاطىء الفرات ناعيا على القدرة الالهية انها تظالمه دائما .

الفصل العشرون

الناسك

وقد لقي في طريقه ناسكا قد انتشرت لحيته على صدره ، وتدلت حتى بلغت حزامه . وكان في يده كتاب يقرأ فيه معنيا أشد العناية . فوقف زديج وانحنى له في اجلال . وقد رد الناسك تحيته في وقار ورفق ، حتى رغب زديج في ان يتحدث اليه . فسأله في أي كتاب تنظر ؟ قال الناسك : « هو كتاب القضاء ، أتريد ان تقرأ فيه شيئا ؟ » ثم وضع الكتاب في يد زديج الذي جعل ينظر فيه دون ان يتبين حرفا من حروفه على علمه المتقن بكثير من اللغات ، وكان هذا سببا في ازدياد حبه للاستطلاع . قال له هذا الاب الرحيم : « اني لاراك شديد الحزن . » قال زديج : « واحسرتاه ما اكثر ما يحزنني ! » قال الشيخ : « أتأذن في ان أصحبك لعلي ان انفعك ؟ فقد استطعت احيانا ان اشيع العزاء في نفوس البائسين . » وقد أحس زديج شيئا من الاحترام لمظهر الناسك ولحيته وكتابه ، ووجد في حديثه نورا ممتازا ، وكان الناسك يتحدث عن القضاء والعدل ، والاخلاق ، والخير الاعظم ، وضعف الانسان ، والفضيلة والرذيلة ، في بلاغة قوية مؤثرة ، حتى احس زديج كأنما يجذبه اليه سحر لايقهر . فألح عليه في الا يتركه حتى يبلغ بابل . قال الشيخ : « اني أطلب اليك هذا الفضل . فاقسم لي باوروزماد الا تفارقني الى ايام مهما افعل . » فاقسم زديج ومضيا معا .

وانتهى المسافران مع المساء الى قصر فخم ، وهناك طلب الناسك الضيافة لنفسه وللشاب الذي يصحبه ، فادخلهما البواب

الذى كانت تظهر عليه شارات السيادة الى القصر فى شيء من العطف المستخف . ثم قدما الى رئيس الخدم ، فاظهرهما على جناح صاحب القصر ، ثم اذن لهما بشهود المائدة ، واجلسا فى اقصاها دون ان ينزل صاحب القصر فيمنحهما طرفه ، ولكنهما طعما كما طعم غيرهما ، واظهر الخدم لهما رقة وسماحة وسخاء ثم قدم اليهما لغسل ايديهما طست من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت . ثم قيدا الى حجرة جميلة انفقا فيها الليل ، فلما كان الغد أقبل خادم فدفع الى كل واحد منهما قطعة من ذهب ثم صرفهما .

فلما كانا فى الطريق قال زديج : « يخيل الى ان صاحب القصر رجل كريم وان كان فيه شيء من كبرياء ، وهو على كل حال حسن الضيافة . » وبينما كان يقول هذا الكلام راى جيبا عريضا كان يحمله الشيخ وقد انتفخ انتفاخا عظيما ، فلما نظر تبين الطست الذهبى المرصع بالجوهر ، وقد سرقه الشيخ . فلم يجرؤ اول الامر على ان يقول شيئا ، ولكنه كان فى دهش مؤلم .

فلما انتصف النهار وقف الشيخ امام دار صغيرة كان يسكنها رجل غنى بخيل ، فاستضافه ساعات من نهار ، فتلقاهما خادم شيخ أشعث لقاء خشنا ، ثم قادهما الى الاسطبل ، وقدم اليهما شيئا من زيتون فاسد وخبز رديء وجعة حامضة . فاكل الناسك وشرب راضيا عن طعامه الفليظ ، كما رضى امس عن طعامه ذاك الرقيق . ثم اتجه الى الخادم الشيخ الذى كان يراقبهما ليرى لعلهما يسرقان شيئا وليستحثهما على الرحيل ، فوضع فى يده الدينارين اللذين تلقاهما مصبحا ، وشكر له عنايته بهما . ثم قال : « ارجوان تتيح لى التحدث الى سيدك » فادخلهما الخادم دهشا . قال الناسك : « ايها السيد العظيم ، ليس يسعنى الا ان اشكر لك فى خضوع نبل لقائك لنا . فتفضل بقبول هذا الطست الذهبى آية على اعترافى بالجميل . » وقد

كاد البخيل يصرع من الدهش . ولم يتح له الناسك أن يفيق من دهشه ، وانما مضى مسرعا يتبعه صاحبه الشاب . قال زديج : ما هـذا الـذى أراه يا أبت ؟ ما أرى انـك تشبه غـيرك من الناس ، انك تسرق طستا ذهبيا من امير تقانا أحسن اللقاء وتهبه لبخيل عاملك احقر المعاملة ! » قال الشيخ : « تعـلم يابنى ان هذا الامير العظيم الذى لايستقبل الناس الا غرورا ليظهرهم على ثرائه سيصبح منذ اليوم عاقلا حـذرا . وسيتعود البخيل ان يكون مضيافا فلا تدهش لشيء واتبعنى . » فـلم يدر زديـج ايصحب اعظم النـاس حظا من الجنـون أم أعظمهم حـظا من الحكمة . ولـكن الناسك كـان يتحدث في ثقة وكان زديج مرتبطا بقسمه فـلم يسعه الا ان يتبع الشـيخ .

فلما كان المساء بلغا دارا متقنة البناء ، ولا يظهر عليها مايدل على الاسراف ولا مايدل على البخل . وكان صاحب الدار فيلسـوفا قد اعتزل الناس وعكف عـلى الحكمة والفضيلة ، وكان عـلى ذلك لايحس مللا ولا سـأما . وكان قد راقه ان يقيم هـذه الدار . وأن يستقبل فيها الغرباء لا مستعليا ولا مغرورا ، فسعى من تلقـاء نفسه الى السائحين وقادهمـا الى حجـرة وثيرة ليستريحا . ثم اقبل بعد حين فدعاهما الى مائدة نظيفة وطعام متقن ، وتحدث اليهما رفيقـا متحفظا عن الثورة الاخيرة التى اضطربت لها بابل . وقد ظهر انه مخلص للملكة أشد الاخلاص ، وانه كان يتمنى لو ظهر زديج في الميدان واستبق مع المستبقين ليظفر بالتاج . ثم قال : « ولكن النـاس لا يستحقون ان يملك عليهم رجل مثـل زديج » وكان زديج يحمر خجلا ويشـعر بان آلامه تتضاعف . وقد اتفق القوم أثناء الحديث على ان الاشياء في هذا العالم لا تجرى على ما يحب الحكماء ، وقد أكد الناسك دائما أن الناس لا يعرفون طريق القدرة الالهية ، وأنهـم يخطئون حـين يحكمـون عـلى كل لا يعرفون الا أيسر اجزائه .

ثم تحدثوا عن الشهوات . فقال زديج : « ما اشد خطرها ! » قال الناسك : « انما الشهوات هى الرياح التى تنشر قلاع السفينة ، وهى تغرق السفينة أحيانا ، ولكن السفينة لا تستطيع ان تجرى من دونها . ان المرارة تدفع الانسان الى الغضب ، وقد تجلب عليه العلة ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يعيش بدونها . كل شيء فى هذه الارض خطر ، وكل شيء فى هذه الارض ضرورى لابد منه . »

ثم تحدثوا عن اللذة واثبت الناسك أنها منحة من الآلهة ، قائلا : « ان الانسان لا يستطيع ان يعطى الحس ولا الفكرة ، وانما يتلقى كل شيء تاتيه اللذة والالم من غيره كما ياتيه شخصه هو . »

وكان زديج يعجب حين يرى رجلا قد اتى تلك الاعمال الغريبة يفكر على هذا النحو الدقيق .

فلما اخذ القوم بحظهم من سمر لذيذ قاد المضيف ضيفه الى حجرتهما شاكرا لله أن ارسل اليه رجلين على هذا الحظ من الحكمة والفضيلة . ثم قدم اليهما شيئا من مال بطريقة سمحة كريمة لا تؤذى النفوس . فاعتذر الناسك وودع مضيفه زاعما انه يريد أن يسافر الى بابل قبل ان يشرق النهار . وكان وداعهم رقيقا ، وكان زديج يشعر بشيء من الاحترام لهذا الرجل الحبيب الى القلوب

فلما صار الناسك وصاحبه فى حجرتهما اثنيا ثناء جميلا على مضيفهما . ثم يقظ الشيخ رفيقه من آخر الليل قائلا له : « يجب ان نرحل ، ولكنى أرى قبل ان يستيقظ الناس ان اترك لهذا الرجل آية على ما أضمر له من حب واكبار . » قال ذلك واخذ مصباحا فاشعل النار فى الدار . وقد روع زديج فجعل يصيح ، وهم أن يمنع الشيخ من اقتراف هذا الاثم المنكر . ولكن الناسك كان يجذبه بقوة لا تقاوم على حين كانت الدار تشتعل ،

والناسك ينظر اليها من بعيد فى هدوء أى هدوء قائلا : « الحمد لله هذه دار مضيفى قد دمرت تدميرا . ما أسعد هذا الرجل ! » فلما سمع زديج هذا الكلام هم أن يضحك وان يضرب الشيخ وان يسبه وان يمضى لوجهه . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئا ، وانما خضع لسلطان الناسك وتبعه كارها الى المرحلة الاخيرة

وقد انتهت بهما هذه المرحلة الى أرملة محسنة فاضلة ، يعيش معها فتى قريب لها فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان جميلا محببا وكان املها الوحيد وقد ضيفتهما كاحسن ما استطاعت ، فلما كان الغد أمرت قريبها أن يصحب المسافرين الى جسر قد قطع منذ حين فاصبح عبوره خطرا على الذين لا يعرفونه . ومضى الفتى امامهما حفيا بهما . فلما بلغوا الجسر قال الناسك للفتى : « أقبل فانى أريد أن اشكر لعمتك صنيعها . » ثم ياخذ بشعره ويلقيه فى النهر . ويسقط الفتى ثم يطفو ثم يستخفى فى لجة الماء . هنالك لم يستطع زديج صبرا فصاح : « يا لك من وحش ! يا لك من مجرم لم ير الناس مثله ! » قال الناسك : « لقد وعدتنى أن تصبر على ما ترى . فتعلم أن تحت هذه الدار التى دمرتها القدرة الالهية كنزا عظيما قد ظفر به صاحبها . وتعلم ان هذا الفتى الذى قتلته القدرة الالهية لو عاش لقتل عمته بعدعام ، ولقتلك انت بعد عامين » « قال زديج : » « من أنبأك بهذا أيها العجى ؟ وهبك قرأت هذا فى كتابك أمن حقك أن تقتل صبيا لم يسىء اليك ؟ »

وبينما كان البابلى يتكلم نظر فاذا الشيخ قد فقد لحيته وظهرت على وجهه ملامح الشباب ، وقد زال عنه ثوب الناسك ونبتت فى جسمه المهيب أجنحة أربعة . قال زديج ، وهو يجثو : « أى رسول السماء أيها الملك الالهى فانت اذن قد هبطت من أعلى عليين لتعلم انسانا ضعيفا هالكا أن يذعن لسلطان القضاء الخالد . » قال الملك جسراد : « ان الناس ليقولون فى

أى رسول السماء ... أيهـــا الملك الالهى

obeikandl.com

كل شيء دون أن يعلموا شيئا ، وقد كنت أشد الناس حاجة الى أن تتعلم . » فاستأذنه زديج فى أن يتكلم : « انى أتهم نفسى . ولكن أجرؤ على أن اسألك ان تجلو لى شكا يقوم بنفسى ؟ ألم يكن اصلاح هذا الصبى وتقويمه خيرا من اغراقه ؟ » قال جسراد : « لو قد أتيح له أن يكون خيرا وأن يعيش ويتخذ زوجا لقتل وقتلت معه زوجه وقتل مهمما ابنهما . » قال زديج : ماذا ؟ أليس من الجريمة والشقاء بد ؟ أليس بد من أن يلم الشقاء بالاخيار ؟ » قال جسراد : « ان الاشرار أشقياء دائما ، وانهم محنة تمتحن بهم قلة من الاخيار مفرقة فى الارض ، وليس من شر الا وهو مصدر للخير » قال زديج : « وما يمنع أن يوجد الخير ولا شر معه ؟ » قال جسراد : « اذن لتبدل الارض غير الارض وتتابع الاحداث على أسلوب آخر من الحكمة . وهذا الاسلوب من الحكمة الكاملة لا يمكن أن يوجد الا فى الملا الاعلى حيث لا يستطيع الشر ان يرقى . وقد خلق الله مالا يعين من العوالم ليس منها واحد يشبه الآخر . وهذا الاختلاف العظيم آية على قدرته التى لا حد لها ، فليس من ورقتين فى الارض ولا كرتين فى حقل السماء تشبه احداهما الأخرى . وكل ما تراه على هذه الذرة الضئيلة التى ولدت عليها قد قدر له مكانه تقديرا حسب النظام الثابت الذى أبدعه القادر على كل شيء . ان الناس يظنون أن هذا الصبى الذى هلك قد سقط فى الماء مصادفة ، وان المصادفة نفسها هى التى حرقت الدار ؛ ولكن المصادفة لا وجود لها ، فكل شيء اما امتحان ، واما عقاب ، واما مكافاة ، واما احتياط . تذكر ذلك الصياد الذى كان يرى نفسه أشقى الناس ، لقد أرسلك أورزماد لتغيير مصيره . أيها الهالك الضعيف لا تعترض على من يجب أن يعبد . » قال زديج : « لكن ... » وبينما كان يقول « لكن » كان الملك يرقى فى السماء العاشرة . فجثا زديج ورفع الى القدرة الالهية عبادته واذعانه . قال له الملك من أعلى السماء : « اسلك طريقك الى بابل . »

هذه لكم

البضاعة الجيدة والسعر المعتدل

وتلك لنا

ثقتكم بنا
واقبالكم علينا

شركة بيع المصنوعات المصرية

مؤسسة بنك مصر الكبرى

معرض دائم

لأحدث المبتكرات وأجمل التشكيلات

ص ت ١٥٨

المركز الرئيسي: ٢ شارع فؤاد الأول - بالقاهرة
وفروعها بالقاهرة وجميع عواصم ومدن القطر

الفصل الحادى والعشرون

الالغاز

مضى زديج فى طريقه هائما ، وقد خرج عن طوره كرجل سقطت الصاعقة منه غير بعيد . فدخل بابل فى اليوم الذى اجتمع فيه المتنافسون فى بهو من ابهاء القصر ليمتحنوا بتفسير الالغاز ، وليجيبوا على اسئلة الكاهن الاعظم . وقد اجتمع الفرسان جميعا الا صاحب اللأمة الخضراء . فلم يكد زديج يظهر فى المدينة حتى اجتمع الشعب من حوله ، ولم تكن العيون تشبع من النظر اليه ، ولم تكن الافواه تكف عن الثناء عليه ، ولم تكن القلوب تكف عن ان تتمنى له الملك . وقد رآه الحسود فارتعش وحول وجهه ، ثم حمله الشعب الى مكان الاجتماع . وانبثت الملكة بمقدمه فتنازعها الخوف والرجاء ، وكان القلق ينهب نفسها نهبا ، ولم تكن تفهم لماذا كان زديج مجردا من سلاحه ولا لماذا كان ايتوباد يحمل اللأمة البيضاء . فلما رأى المجتمعون زديج ارتفع بينهم ضجيج مختلط . وكان المجتمعون دهشين سعداء لحضوره . ولكن لم يكن يؤذن الا للفرسان الذين شاركوا فى المبارزة بشهود الاجتماع . قال زديج : «لقد بارزت كما بارز غيرى ، ولكن رجلا غيرى يحمل سلاحى فى هذا المكان ، والى ان يتاح لى الشرف باثبات ذلك ارجو ان يؤذن لى بالمشاركة فى تفسير الالغاز .» واخذت الاصوات فلم يتردد احد فى قبوله لان امانته وصدقه وشرفه كانت لا تزال مستقرة فى القلوب .

وقد بدا الكاهن الاعظم فالقى هذا السؤال : « ماشىء هو اطول

الاشـــياء فى العـالم واقصرها .واسرع الاشياء وابطؤها ، واشد الاشـــياء استعدادا للانقســام واشدها امتدادا ، واشد الاشياء تعرضا للاهمال واشدها تعرضا للحزن عليه ، بغيره لاسبيل الى ان يصنع شيء ، وهو يزدرد كل ما هو صغير ، ويحيى كل ما هو كبير ؟ »

وكان على ايتوباد ان يتكلم ، فأجاب بان رجلا مثله لاعلم له بالالغاز وحسبه انه انتصر برمحه. قال بعض المتنافسين ان جواب اللغز انمـــا هو الحظ . وقال بعضهم هو الارض . وقال بعضهم هو النـور . وقال زديج « انـه الزمان ليس شيء اطول منه لانه مقياس الابد ، وليس شيء اقصر منه ، لانه يقصر عن آمالنا. وليس شيء ابطأ منه للمنتظر ، وليس شيء اسرع منه للمبتهج ، وهـو يمتد فى السعة الى مالانهـاية ، وينقسم فى الصغر الى مالانهاية ، والناس جميعا يهملونه ، والناس جميعا يأسفون على ضـــياعه ، لايصنع شيء بدونه ، وهو ينسى مالايستحق الخلود ، ويخلد جلائل الاعمال . فاجمع القوم على ان زديج قد أصاب .

ثم سئل بعد ذلك : « ماشيء يقبل ولايشكر معطيه ، وينعـم الناس به دون ان يعرفوا كيف ينعمون به ، ويعطونه غيرهم دون ان يعرفوا اين هم منه ، ويفقده الناس على غير وعى منهم ؟ »

فادلى كل بجوابه ، وقال زديج انه الحياة . وفسر سائر الالغاز على هذا النحو من اليسر ، وكان ايتوباد يقول : « ليس شيء ايسر من هذه الالغاز ، ولو قـد ارادلاجاب عليها فى غير مشقة ، وقد القيت اسئلة حول العدل والخير الاعظم وفن الحكم ، فكانت اجوبة زديج اقوم الاجوبة . وكان الناس يقولون من حوله ان مما يحـزن حقا ان يكون صاحب هذا العقل الممتاز فارسا غير ممتاز .

قال زديج : « ايها السـادة العظام ! لقد شرفت بالانتصار فى الميدان ، وانما اللأمة البيضاء هى لامتى ، وقد اخذها السيد ايتوباد اثناء نومى . وقد راى فى اكبـر الظن انهـــا اليق به من لامتـــه

الخضراء . واني مستعد ان اثبت امامكم بثوبي هذا ، وسيفي، على رغم كل مايحمل هو من هـذه اللامة البيضاء التي اختلسها منى. انى انا الذى انتصر على الامير اوتام . »

وقد قبل ايتوباد هذا التحدى واثقا بنفسه اعظم الثقة . ولم يكن يشك فى انه وقد حمل الخوذة والدرع والمغفر سينتصر فى غير عناء على خصم ليس عليه الا ثوب وقلنسوة . وقد استل زديج سيفه وحيا الملكة التى كانت تنظر اليه يتنازعها الفرح والخوف. واستل ايتوباد سيفه ولم يحى احدا . ثم تقدم الى زديج كما يتقدم رجل لايهاب شيئا . وكان يوشك ان يشدخ راسه . وقد اتقى زديج هذه الضربة معارضا بقوة سيفه ضعف خصمه ، بحيث انكسر سيف ايتوباد. هنالك هجم زديج على خصمه فاخذ يتلابيبه وصرعه على الارض ، ثم انفذ ذبابة سيفه من ثنايا الدرع قائلا له : « دعنى اجردك من سلاحك والا قتلتك . » وقد دهش ايتوباد لسوء الحظ الذى الم برجل مثله ، وخلى بين زديج وبين سلاحه وقد بدأ فنزع خوذته ، ثم درعه الفخمة ، ثم مغفره الجميل . ثم لبس هذا كله وجرى فى لامته هذه حتى جثا عند قدمى استارتيه . واثبت كادور فى سهولة ان هذه اللامة هى لامة زديج فنودى به ملكا عن رضا من الناس جميعا ، وخاصة من استارتيه التى نعمت بعد كثير من الشقاء بان ترى عاشقها خليقا فى راى العالم كله ان يصبح لها زوجا. وعاد ايتوباد الى قصره حيث يدعوه خدمه مولاى ، واصبح زديج ملكا واصبح سعيدا . وكان يتمثل فى نفسه ماقال له الملك جسراد : بل تذكر حبة الرمل التى اصبحت ماسة . وقد شكرت الملكة وشكر هو للالهة هذا الفضل . وترك زديج الجامحة الجميلة ميسوف تطوف فى اقطار الارض ، وارسل يدعو قاطع الطريق اربوجاد فرفعه الى مرتبة حسنة فى جيشه ، ووعده بان يرفعه الى ارقى المراتب ان سار سيرة الجندى الشريف ، وان يشنقه ان عاد الى قطع الطريق.

ودعى سيتوك مع المونا الحسناء من اعماق بلاد العرب ، فجعل على تجاره بابل . وانزل كدور منزلة تلائم بلاءه ووفاءه فاصبح صديق الملك . واصبح زديج هو الملك الوحيد الذى استطاع بين ملوك الارض ان يكون له صديق مخلص . ولم ينس زديج القرم الاخرس . ومنح الصياد دارا جميلة . وقضى على اوركان ان يؤدى اليه مقدارا ضخما من المال وان يرد اليه امرأته . ولكن الصياد وقد صار حكيما ابى ان يأخذ الا المال .

ولم تتعز سمير الحسناء من خطئها حين ظنت ان زديج سيصبح اعور ، ولم تكف ازورارا عن البكاء لانها همت ذات يوم ان تجدع انفه . وقد خفف زديج المهما بما اهدى اليهما من الهدايا . ومات الحسود غيظا وخزيا . واستمتعت الدولة بالسلم والمجد والرخاء . وكان هذا العصر اجمل عصر عرفته الارض . فقد حكمها فيه الحب والعدل . وكان الناس يحمدون زديج ، وكان زديج يثنى على الآلهة .

وهنا تنتهى المخطوطة التى تقص تاريخ زديج . والناس يعلمون انه تعرض لمغامرات كثيرة اخرى قد سجلت تسجيلا دقيقا ، فنرجو أن ينشرها المستشرقون ان وصلت اليهم .

كتب قيمة بقروش زهيدة

١ ـ آبار في الصحراء ـ مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامي

٢ ـ الضاحك الباكي ـ أحاديث عن أنوره المصرية لفكري أباظة باشا

٣ ـ الف ليله الجديدة ـ اخراج جديد لهذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الخميسي

٤ ـ نساء من خزف ـ مجموعة من القصص المصرية للاستاذ سعد مكاوي

٥ ـ صندوق الدنيا ـ صورة فكهه لفقيد الادب الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

٦ ـ فرعون الصغير ـ مجموعة قصص مصرية طلية للاستاذ محمود تيمور بك

٧ ـ الشرق والغرب ـ مجموعة قصص للدكتور محمد عوض محمد بك

٨ ـ قضايا الحب ـ مجموعة من اغرب وامتع القضايا للاستاذ فائق الجوهري

٩ ـ جيشنا في فلسطين ـ تسجيل تاريخي لمعارك الجيش المصري في حملته لانقاذ فلسطين من الارهاب الصهيوني للصاغ السيد فرج

١٠ ـ الف ليله الجديدة ـ المجموعه الثانية للاستاذ عبد الرحمن الخميسي

١١ - فى المرآة - مختار المزايا فى السياسة الاسبوعية للفقيد الادب الشيخ عبد العزيز البشرى

١٢ - غاديات رائحات - قصص مصرية للاستاذ محمود طاهر حقى

١٣ - صانع الحب - مجموعة من القصص الواقعية للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ - دموع وضحكات - مجموعة قصص واقعية للاستاذ عباس حافظ

١٥ - عندما تحب المرأة - مجموعة قصص مصرية للاستاذ حلمى مراد

١٦ - حاجى بابا الاصفهانى - عن جيمس موريه للاستاذ مرسى الشافعى

١٧ - جرائم ومرافعات - مجموعة من أشهر القضايا للاستاذ يوسف حلمى

١٨ - الطريق الى السعادة - عن الفيلسوف الامريكى هنرى لنك للصاغ ثروت محمود

١٩ - موعد فى الجنة - قصص واقعية عن الابطال المصريين فى حرب فلسطين للاستاذ حلمى سلام

٢٠ - نجيب الريحانى - دراسة وافية دقيقة للاستاذ عثمان العنتبلى

٢١ - صور من الريف - صورة صادقة لحياة الريف بما فيه من نعيم وشقاء ، ومسرات واحزان للاستاذ زكى عبد القادر

٢٢ - الحب فى التاريخ - أشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ سلامة موسى

٢٣ - عشرة أيام فى السودان - لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

٢٤ - من وراء القضبان - لزعيم حزب مصر الاشتراكى الاستاذ احمد حسين

٢٥ - مارد من الشرق - صور من الهند للاستاذ احمد قاسم جودة مع فصول للاستاذ محمود ابو الفتح صاحب المصرى

٢٦ - خبايا سياسية - فصول طريفة عن أسرار السياسة المصرية بقلم الدكتور محمود عزمى

٢٧ - جنة الحيوان - فصول فى الادب والحكمة فريدة فى مستواها لمعالى الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف

٢٨ - بائع الحب - رواية جديدة من الادب العاطفى للاستاذ احسان عبد القدوس

٢٩ - حياة ثانية - قصة حياة عجيبة تصور متع الشباب ومآسيه للدكتور ابراهيم عبده ,

٣٠ - ادركنى يا دكتور - صور واقعية لادق الاسرار فى حياة الناس كما تعرض للطبيب للدكتور ابراهيم ناجى

٣١ - مشاكل الحب والزواج - ارشادات للفتيان والفتيات قبل الزواج وبعده - لفائق الجوهرى

obeikandl.com

٣ ـ شخصيات بلا رتوش ـ تحليل واقعى لحوالى مائة شخصية فى عالم السياسة والادب والفن ـ بقلم الاستاذ صلاح عبد الجيد وريشة الرسام فوزى

٣٠ ـ قصص تمثيلية ـ فصول فى النقد والتحليل تشمل خمس عشرة مسرحية فرنسية للدكتور طه حسين باشا

٣١ ـ الوان من الحب ـ مجموعة قصص عاطفية تحليلية للاستاذ عباس حافظ

٣٢ ـ يوميات مجنون ـ مجموعة قصص مختارة ترجمها الاستاذ عبدالرحمن الخميسى عن موباسان وتولستوى ودستوفسكى وتشيكوف وغيرهم من كبار كتاب القصة فى الغرب

٣٦ ـ العاصية ـ مجموعة قصص طريفة تشمل دراسة ممتعة للحب للاستاذ احمد الصاوى محمد بك

٣٧ ـ مهازل الحياة ـ مجموعة من القصص الغربية من مختلف بلاد العالم للاستاذ حبيب جاماتى

٣٨ ـ فاتنة الشيطان ـ مجموعة من الصور الواقعية الغربية للحياة المصرية للدكتور سعيد عبده

٣٩ ـ شهر فى نيويورك ـ دراسة ممتعة للحياة فى امريكا لرئيس تحرير جريدة المصرى الاستاذ احمد أبوالفتح

٤٠ ـ الجاسوسية فى مصر ـ مجموعة من الحوادث الخفية التى طوتها الملفات الحربية ضمن ماتطوى من اسرار للاستاذ محمد رفعت المحامى

٤١ ـ نساء فى حياتى ـ قصص حياة اثنتى عشرة امراة عشن فى حياة المؤلف وعاش فى حياتهن للاستاذ امين يوسف غراب

٤٢ ـ فكرى اباظه فى الراديو ـ نقدات لاذعة للحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر لفكرى اباظه باشا

٤٣ ـ الشباب والجنس ـ محاولة علمية لتحطيم الجهل الجنسى فى سبيل الصحة والسعادة الزوجية لفائق الجوهرى المحامى

ثمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

obeikandl.com